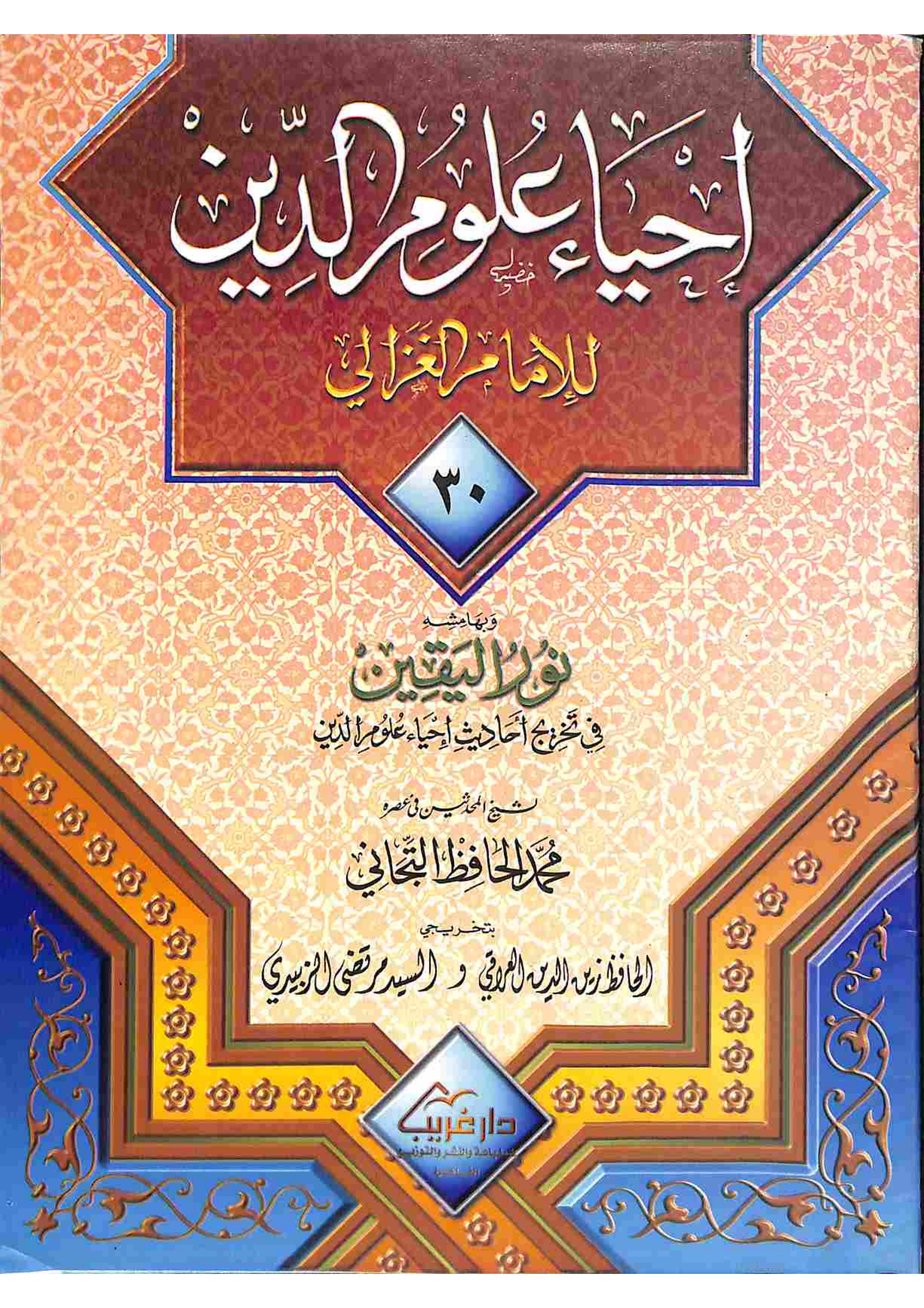
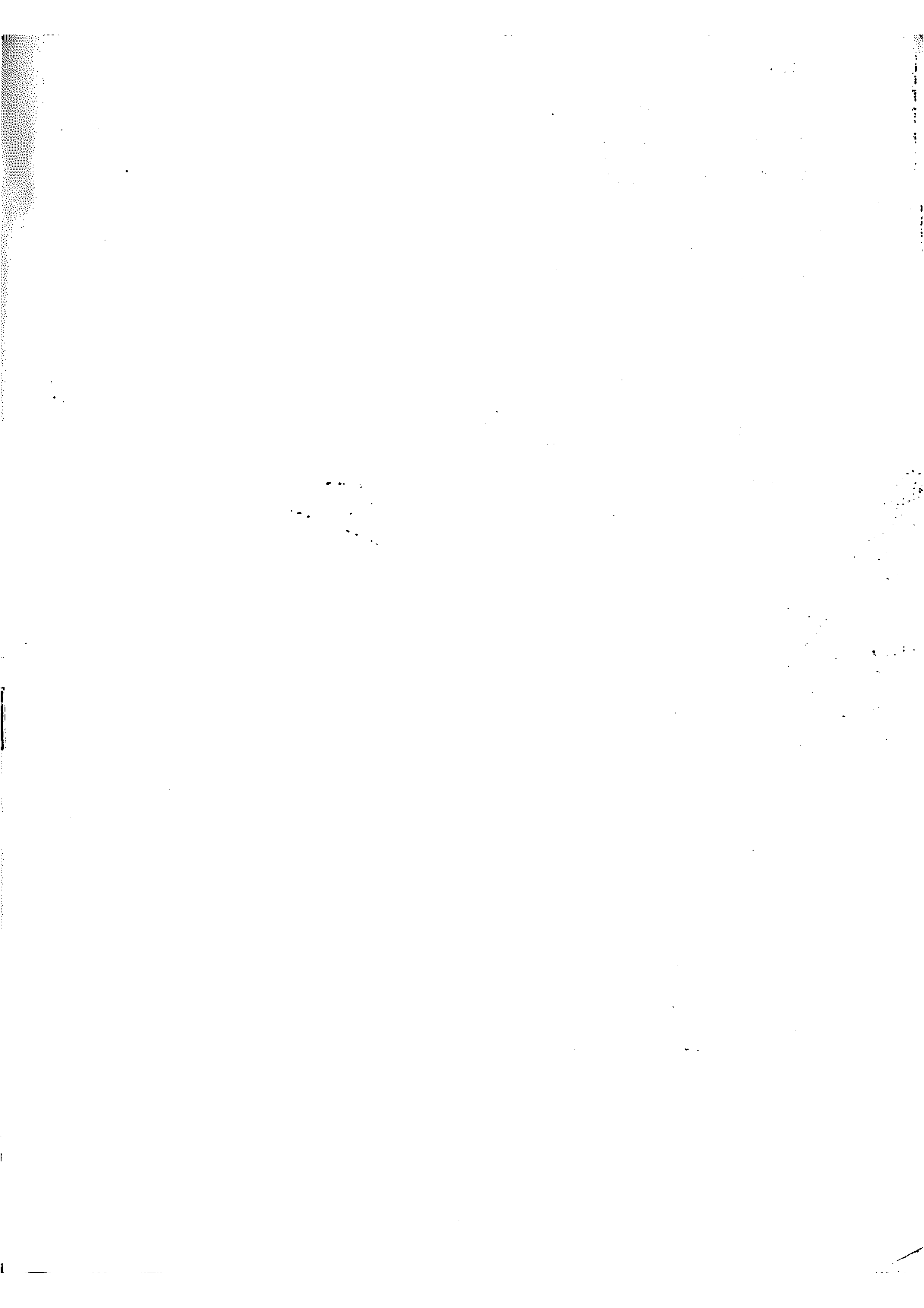

إحياء علوم الدين
للإمام الغزالي
٣٠
وبهامشه
نور اليقين
في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين
لشيخ المحدثين في عصره
محمد الحافظ التجاني
بتخريجي
الحافظ زين الدين العراقي و السيد مرتضى الزبيدي
دار غريب



وقد قام أبو بكر رضي الله عنه خطيبا وقال : « أيها الناس إنكم تقرؤن هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة : ١٠٥) ، وإنكم تضعونها في غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب» (٢١٥٩) .

(٢١٥٩) حديث : قام أبو بكر رضي الله عنه خطيبًا على المنبر وقال : « أنكم تقرءون هذه الآية » وهي في سورة المائدة «﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإنكم لتضعونها في غير موضعها » وفي نسخة على غير مواضعها « وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا رأى الناس المنكر» وفي لفظ أن الناس إذا رأوا المنكر « فلم يغيروه » وفي لفظ ولا يغيرونه «أوشك أن يعمهم الله بعقاب » **قال العراقي** : رواه أصحاب السنن قال الترمذي حسن صحيح . اهـ.

قال مرتضى : ورواه أيضا بهذا السياق أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف وأحمد وعبد بن حميد والعوفي وابن منيع والحميدي في مسانيدهم وأبو يعلى والكجي في سننه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والدارقطني في الإفراد وابن منده في غرائب شعبه وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو ذر الهروي في الجامع وأبو نعيم في المعرفة والبيهقي في الشعب والضياء في المختارة كلهم من حديث قيس بن أبي حازم وقال الدارقطني في العلل جميع رواته ثقات وفي لفظ لابن جرير صعد أبو بكر منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أيها الناس إنكم لتتلون آية من كتاب الله وتعدونها رخصة والله ما أنزل الله في كتابه أشد منها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله بعقاب وقال البزار في مسنده حدثنا يحيى بن حبيب بن عربي حدثنا المعتمر بن سليمان عن إسماعيل بن أبي خالد قال سمعت أبا بكر الصديق رحمه الله يقول أيها الناس إنكم تقرؤن هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن أمتي إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعقاب قال البزار وهذا الكلام لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا اللفظ إلا عن أبي بكر عنه وقد أسند هذا الحديث جماعة عن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ووافقه جماعة فكان ممن أسنده شعبة وزائدة بن قدامة والمعتمر بن سليمان ويزيد بن هارون وغيرهم فأما حديث شعبة فحدثناه محمد بن معتمر حدثنا روح بن عبادة حدثنا شعبة عن إسماعيل بن قيس بن أبي حازم عن=

وقد قال ﷺ : « إن الله ليسأل العبد حتى يقول له : ما منعك إذا رأيت المنكر فى الدنيا، أن تنكره ؟ فإذا لقن الله العبد حجته قال : يا رب رجوتك ، وخفت الناس » (٢١٦٠) .

وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لا يطاق ، ومعرفة حدود ذلك مشكلة ، وفيه خطر، وفى العزلة خلاص ، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إثارة للخصومات وتحريك لغوائل الصدور كما قيل .

وكم سقت فى آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغضة المتنصح

ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالبا ، فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه، فيوشك أن يسقط عليه ، فإذا سقط عليه يقول : ياليتنى تركته مائلا .

نعم لو وجد أعوانا ، أمسكوا الحائط حتى يحكمه بدعامة لاستقام ، وأنت اليوم لا تجد الأعوان ، فدعهم وانج بنفسك .

وأما الرياء : فهو الداء العضال الذى يعسر على الأبدال والأوتاد الاحتراز عنه ، وكل من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم رآهم، ومن رآهم وقع فيما وقعوا فيه ، وهلك كما هلكوا .

وأقل ما يلزم فيه النفاق ، فإنك إن خالطت متعاديين ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافقه ، صرت بغيضا إليهما جميعا ، وإن جاملتهما ، كنت من شرار الناس .

= أبى بكر رضي الله عنه عن النبى ﷺ وأما حديث زائدة فحدثناه محمد بن المثنى حدثنا روح عن زائدة عن إسماعيل عن قيس عن أبى بكر عن النبى ﷺ بنحو حديث المعتمر وأسنده شعبة عن معاذ بن جبل وروح بن عبادة وعثمان بن عمر ورواه بيان عن قيس عن أبى بكر موقوفا .

(٢١٦٠) حديث : قال ﷺ : « إن الله يسأل العبد » أى يوم وقوفه بين يديه« حتى يقول ما منعك إذا رأيت المنكر فى الدنيا أن تنكره » بيدك أو بلسانك « فإذا لقن الله العبد حجته فيقول يا رب رجوتك وخفت الناس » **قال العراقى** رواه ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى بإسناد جيد .اهـ.

وقال ﷺ : « تجدون من شرار الناس ذا الوجهين يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» .

وقال ﷺ : « إن من شرار الناس ذا الوجهين يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » (٢١٦١) .

وأقل ما يجب فى مخالطة الناس إظهار الشوق والمبالغة فيه ، ولا يخلو ذلك عن كذب إما فى الأصل وإما فى الزيادة ، وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال بقولك كيف أنت وكيف أهلك ، وأنت في الباطن فارغ القلب من همومه ، وهذا نفاق محض .

قال سرى : لو دخل على أخ لى ، فسويت لحيتى بيدى لدخوله ، لخشيت أن أكتب فى جريدة المنافقين .

وكان الفضيل جالسا وحده فى المسجد الحرام ، فجاء إليه أخ له فقال له : ما جاء بك ؟ قال : المؤانسة يا أبا على ، فقال : هى والله بالمواحشة أشبه ، هل تريد إلا أن تتزين لى وأتزين لك وتكذب لى وأكذب لك ، إما أن تقوم عنى أو أقوم عنك .

وقال بعض العلماء : ما أحب الله عبدا إلا أحب أن لا يشعر به .

ودخل طاوس على الخليفة هشام ، فقال كيف أنت يا هشام ؟ فغضب عليه وقال: لم لم تخاطبنى بأمير المؤمنين ؟ فقال : لأن جميع المسلمين ما اتفقوا على خلافتك ، فخشيت أن أكون كاذبا .

(٢١٦١) حديث : (أ) قال ﷺ : « تجدون من شرار الناس ذا الوجهين يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» **قال العراقى :** متفق عليه من حديث أبى هريرة .اهـ.

قال مرتضى : وقد تقدم ذلك فى آخر كتاب قواعد العقائد وفى بعض النسخ بل أكثرها الاقتصار على الحديث الأخير .

(ب) قال ﷺ : « إن من شرار الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » **قال العراقى :** رواه مسلم من حديث أبى هريرة وهو الحديث رقم (أ) السابق.اهـ.

قال مرتضى : وكذا رواه أحمد ولفظهم جميعا تجدون الناس معادن فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا وتجدون خير الناس فى هذا الشأن أشدهم له كراهة قبل أن يقع فيه وتجدون شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذى يأتي هؤلاء بوجه ويأتى هؤلاء بوجه .

فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحتراز ، فليخالط الناس ، وإلا فليرض بإثبات اسمه في جريدة المنافقين ، فقد كان السلف يتلاقون ويحترزون في قولهم ، كيف أصبحت وكيف أمسيت وكيف أنت وكيف حالك ؟ وفي الجواب عنه ، فكان سؤالهم عن أحوال الدين لا عن أحوال الدنيا .

قال حاتم الأصم لحامد اللفاف : كيف أنت في نفسك ؟ قال : سالم معافى ، فكره حاتم جوابه وقال : يا حامد السلامة من وراء الصراط والعافية في الجنة .

وكان إذا قيل لعيسى عليه السلام : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت لا أملك تقديم ما أرجو، ولا أستطيع دفع ما أحاذر ، وأصبحت مرتهنا بعملي والخير كله في يد غيري، ولا فقيرًا أفقر مني .

وكان الربيع بن خيثم إذا قيل له كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من ضعفاء مذنبين نستوفي أرزاقنا وننتظر آجالنا .

وكان أبو الدرداء إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بخير إن نجوت من النار .

وكان سفيان الثوري إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ يقول : أصبحت أشكر ذا إلى ذا، وأذم ذا إلى ذا، وأفر من ذا إلى ذا .

وقيل لأويس القرني : كيف أصبحت ؟ قال : كيف يصبح رجل إذا أمسى لا يدري أنه يصبح ، وإذا أصبح لا يدري أنه يمسي .

وقيل لمالك بن دينار : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت في عمر ينقص ، وذنوب تزيد .

وقيل لبعض الحكماء : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت لا أرضى حياتي لمماتي ولا نفسي لربي .

وقيل لحكيم : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت آكل رزق ربى وأطيع عدوه إبليس .

وقيل لمحمد بن واسع : كيف أصبحت ؟ قال : ما ظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة .

وقيل لحامد اللفاف : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أشتهى عافية يوم إلى الليل، فقيل له : ألست فى عافية فى كل الأيام ؟ فقال : العافية يوم لا أعصى الله تعالى فيه .

وقيل لرجل وهو يجود بنفسه : ما حالك ؟ فقال : وما حال من يريد سفرا بعيدا بلا زاد ويدخل قبرا موحشا بلا مؤنس ، وينطلق إلى ملك عدل بلا حجة .

وقيل لحسان بن أبى سنان : ما حالك ؟ فقال : ما حال من يموت ثم يبعث ثم يحاسب .

وقال ابن سيرين لرجل : كيف حالك ؟ فقال : وما حال من عليه خمسمائة درهم دينا ، وهو معيل (أى ذو عيال) ، فدخل ابن سيرين منزله فاخرج له ألف درهم فدفعها إليه، وقال خمسمائة اقض بها دينك ، وخمسمائة عد بها على نفسك وعيالك، ولم يكن عنده غيرها ، ثم قال : والله لا أسأل أحدا عن حاله أبدا .

وإنما فعل ذلك لأنه خشى أن يكون سؤاله ، من غير اهتمام بأمره ، فيكون بذلك مرائيا منافقا ، فقد كان سؤالهم عن أمور الدين ، وأحوال القلب فى معاملة الله، وإن سألوا عن أمور الدنيا ، فعن اهتمام وعزم على القيام ، بما يظهر لهم من الحاجة .

وقال بعضهم : إنى لأعرف أقواما كانوا لا يتلاقون ، ولو حكم أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه ، وأرى الآن أقواما يتلاقون ويتساءلون ، حتى عن

الدجاجة فى البيت ، ولو انبسط أحدهم لحبة من مال صاحبه لمنعه ، فهل هذا إلا مجرد الرياء والنفاق .

وآية ذلك أنك ترى هذا يقول : كيف أنت ؟ ويقول الآخر : كيف أنت ؟ فالسائل لا ينتظر الجواب ، والمسئول يشتغل بالسؤال ولا يجيب ، وذلك لمعرفتهم بأن ذلك عن زياء وتكلف ، ولعل القلوب لا تخلو عن ضغائن وأحقاد والألسنة تنطق بالسؤال .

قال الحسن إنما كانوا يقولون : السلام عليكم إذا سلمت والله القلوب ، وأما الآن ، فكيف أصبحت عافاك الله ، كيف أنت أصلحك الله ، فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة لا كرامة ، فإن شاءوا غضبوا علينا وإن شاءوا لا ، وإنما قال ذلك لأن البداية بقولك: كيف أصبحت بدعة .

وقال رجل لأبى بكر بن عياش : كيف أصبحت ؟ فما أجابه ، وقال : دعونا من هذه البدعة ، وقال : إنما حدث هذا فى زمان الطاعون ، الذى كان يدعى طاعون عمواس بالشام من الموت الذريع ، كان الرجل يلقاه أخوه غدوة ، فيقول : كيف أصبحت من الطاعون ؟ ويلقاه عشية فيقول : كيف أمسيت ؟ والمقصود أن الالتقاء فى غالب العادات، ليس يخلو عن أنواع من التصنع والرياء والنفاق ، وكل ذلك مذموم بعضه محظور، وبعضه مكروه .

وفى العزلة الخلاص من ذلك ، فإن من لقى الخلق ولم يخالقهم باخلاقهم مقتوه واستثقلوه واغتابوه وتشمروا لإيذائه ، فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه ودنياه فى الانتقام منهم .

وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم ، فهو داء دفين ، قلما يتنبه له العقلاء فضلا عن الغافلين ، فلا يجالس الإنسان فاسقا مدة مع كونه منكرا عليه فى باطنه ، إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته ، لادرك بينهما تفرقة فى

النفرة عن الفساد واستثقاله ، إذ يصير الفساد بكثرة المشاهدة هينا على الطبع ، فيسقط وقعه واستعظامه له ، وإنما الوازع عنه شدة وقعه فى القلب ، فإذا صار مستصغرا بطول المشاهدة أوشك أن تنحل القوة الوازعة ، ويذعن الطبع للميل إليه ، أو لما دونه .

ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره ، استحقر الصغائر من نفسه . ولذلك يزدرى الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه ، فتؤثر مجالستهم فى أن يستصغر ما عنده، وتؤثر مجالسة الفقراء فى استعظام ما أتيح له من النعم ، وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة .

هذا تأثيره فى الطبع ، فمن يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة والتابعين ، فى العبادة والتنزه عن الدنيا ، فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الاستصغار وإلى عبادته بعين الاستحقار .

وما دام يرى نفسه مقصرا ، فلا يخلو عن داعية الاجتهاد ، رغبة فى الاستكمال واستتماما للاقتداء ، ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان ، وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا ، واعتيادهم المعاصى ، استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة فى الخير يصادفها فى قلبه ، وذلك هو الهلاك .

ويكفى فى تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر، فضلا عن مشاهدته ، وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله ﷺ : « **عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة** » (٢١٦٢) .

(٢١٦٢) حديث : قال ﷺ : « عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة » . **قال العراقى** : ليس له أصل فى الحديث المرفوع وإنما هو قول سفيان بن عيينة كذا رواه ابن الجوزى فى مقدمة صفوة الصفوة .اهـ.

قال مرتضى : وسئل عنه تلميذه الحافظ ابن حجر فقال لا أستحضره مرفوعا وقال تلميذه الحافظ السخاوى فى المقاصد وسأل أبو عمر وأبو جعفر بن حمدان وهما صالحان بأى نية أكتب الحديث فقال ألستم تروون أن عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة قال نعم قال فرسول الله ﷺ رأس الصالحين .اهـ.أشار بذلك أن له أصلا وقال أبو نعيم فى الحلية حدثنا أبو حاتم أحمد بن محمد بن الحسن حدثنا الحسن بن محمد الهيتمى حدثنا محمد بن حسين=

وإنما الرحمة دخول الجنة ولقاء الله ، وليس ينزل عند الذكر عين ذلك ولكن سببه ، وهو انبعاث الرغبة من القلب ، وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستنكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصير ، ومبدأ الرحمة فعل الخير ، ومبدأ فعل الخير الرغبة ، ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين ، فهذا معنى نزول الرحمة .

والمفهوم من فحوى هذا الكلام ، عند الفطن كالمفهوم من عكسه ، وهو أن عند ذكر الفاسقين ، تنزل اللعنة ، لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصى ، واللعنة هى البعد ومبدأ البعد من الله هو المعاصى والإعراض عن الله بالإقبال على الحظوظ العاجلة والشهوات الحاضرة ، لا على الوجه المشروع ، ومبدأ المعاصى سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب ، ومبدأ سقوط الثقل وقوع الأنس بها بكثرة السماع .

وإذا كان هذا حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم ، بل قد صرح بذلك رسول الله ﷺ حيث قال ﷺ : « **مثل الجليس السوء كمثل الكير إن لم يحرقك بشرره ، علق بك من ريحه** » (٢١٦٣) فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به ، فكذلك يسهل الفساد على القلب ولا يشعر به .

= قال سمعت ابن عيينة يقول عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ووقع فى كتاب جامع العلم لابن عبد البر عزوه إلى الثورى والمشهور الأول .

(٢١٦٣) حديث : قال ﷺ : « مثل الجليس السوء كمثل الكير إن لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه » **قال العراقى :** متفق عليه من حديث أبى موسى .اهـ.

قال مرتضى : هما حديث واحد وقد أدرج المصنف بينهما كلاما من عنده واختلف فى سياق لفظه فلفظ البخاري مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد لا يعدم من صاحب المسك إما يشتريه أو يجد ريحه وكير الحداد يحرق بيتك أو ثوبك أو تجد منه ريحا خبيثة وهكذا رواه أيضا ابن حبان وفى لفظ ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك أو تجد منه ريحا خبيثة ورواه ابن حبان أيضا والرامهرمزى فى الأمثال بلفظ مثل الجليس الصالح مثل العطار إن لم يصبك منه أصابك ريحه ومثل الجليس السوء مثل القيران لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه وقد روى هذا أيضا من حديث أنس بلفظ ومثل جليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شئ أصابك من ريحه ومثل جليس السوء =

وقال ﷺ : « مثل الجليس الصالح مثل صاحب المسك إن لم يهب لك منه تجد ريحه» .

ولهذا أقول : من عرف من عالم زلة ، حرم عليه حكايتها **لعلتين :**

إحداهما: إنها غيبة .

والثانية : وهى أعظمهما أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة ، ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها ، فيكون ذلك سببا لتهوين تلك المعصية ، فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك دفع الاستنكار وقال : كيف يستبعد هذا منا ، وكلنا مضطرون إلى مثله ، حتى العلماء والعباد، ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم، ولا يتعاطاه موفق معتبر ، لشق عليه الإقدام ، فكم من شخص ، يتكالب على الدنيا، ويحرص على جمعها ، ويتهالك على حب الرياسة وتزيينها ، ويهوّن على نفسه قبحها، ويزعم أن الصحابة ﷺ لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرياسة ، وربما يستشهد عليه بقتال على ومعاوية ، ويخمن فى نفسه ، أن ذلك لم يكن لطلب الحق ، بل لطلب الرياسة ، فهذا الاعتقاد خطأ، يهون عليه أمر الرياسة ولوازمها من المعاصى .

والطبع اللئيم يميل إلى اتباع الهفوات ، والإعراض عن الحسنات ، بل إلى تقدير الهفوة فيما لا هفوة فيه بالتنزيل على مقتضى الشهوة ليتعلل به، وهو من دقائق مكايد الشيطان ، ولذلك وصف الله المراغمين للشيطان فيها بقوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ (الزمر : ٢١٨) .

= كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من شرره أصابك من دخانه هكذا رواه أبو داود والنسائى من طريق قتادة عن أنس وبلفظ مثل الجليس الصالح مثل العطار إن لم يعطك من عطره أصابك من ريحه ومثل الجليس السوء مثل القيران إن لم يحرق ثوبك أصابك من ريحه هكذا رواه أبو داود أيضا وأبو يعلى وابن حبان فى روضة العقلاء والحاكم والضياء فى المختارة من طريق شبيل عن أنس .

وضرب ﷺ لذلك مثلا ، وقال : « **مثل الذي يجلس يستمع الحكمة ، ثم لا يعمل إلا بشر ما يستمع ، كمثل رجل أتى راعيا فقال له : يا راعى أجزر لي شاة من غنمك ، فقال : اذهب فخذ خير شاة فيها ، فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم** » (٢١٦٤) .

وكل من ينقل هفوات الأئمة فهذا مثاله أيضا ، ومما يدل على سقوط وقع الشيء عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته أن أكثر الناس إذا رأوا مسلما أفطر فى نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعادا يكاد يفضى إلى اعتقادهم كفره ، وقد يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عنه طباعهم كنفرتهم عن تأخير الصوم مع أن صلاة واحدة يقتضى تركها الكفر عند قوم ، وحز الرقبة عند قوم ، وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه ، ولا سبب له إلا أن الصلاة تتكرر، والتساهل فيها مما يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب ، ولذلك لو لبس الفقيه ثوبا من حرير أو خاتما من ذهب أو شرب من إناء فضة استبعدته النفوس واشتد انكارها ، وقد يشاهد فى مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياب للناس ، ولا يستبعد منه ذلك، والغيبة أشد من الزنا فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير؟ ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين أسقط وقعها عن القلوب وهون على النفس أمرها ، فتفطن لهذه الدقائق ، وفر من الناس فرارك من الأسد ، لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يزيد فى حرصك على الدنيا ، وغفلتك عن الآخرة ويهون عليك المعصية ، ويضعف رغبتك فى الطاعة.

(٢١٦٤) حديث : قال ﷺ : « مثل الذى يسمع الحكمة ثم لا يحمل منها إلا شر ما يسمع» وفى رواية : ولا يحدث عن صاحبه إلا شر ما يسمع « كمثل رجل أتى راعيا فقال يا راعى اجزر لى » وفى رواية أجزرنى أى اعطينى « شاة من غنمك » تصلح للذبح يقال أجزرت القوم إذا أعطيتهم شاة يذبحونها ولايقال إلا فى الغنم خاصة قاله ابن الأثير «فقال» له الراعى «اذهب فخذ خير شاة فيها » وفى رواية فخذ بأذن خيرها « فذهب فأخذ بإذن كلب الغنم » أى الذى يحرس الغنم من الذئاب **قال العراقى** : رواه ابن ماجه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف .اهـ.

قال مرتضى : وكذلك رواه أحمد وأبو يعلى والرامهرمزى فى الأمثال والبيهقى فى الشعب وسند أحمد رجال موثقون .

فإن وجـدت جليسا يذكرك الله رؤيتـه وسيرته فـالزمه ، ولا تفارقه واغـتنمه ولا تستحـقره ، فإنها غنيمة العـاقل وضالة المؤمن وتحقق « **أن الجليس الصـالح خيـر من الوحدة ، وأن الوحدة خير من الجليس السوء** » (٢١٦٥) .

ومهما فـهمت هذه المعانى ولاحظت طبعك والتفت إلى حـال من أردت مخالطته لم يخف عليك أن الأولى التبـاعـد عنه بالعزلة ، أو التـقرب إليـه بالخلطة ، وإياك أن تحكم مطلقا عـلى العزلة، أو على الخلطة بأن إحداهـما أولى ، إذ كلٌ مفـصلٌ فإطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف من القول محض ؛ ولا حق فى المفصل إلا التفصيل .

الفـائـدة الثـالثـة : الخلاص من الفتن والخـصومات وصـيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها ، وقلما تـخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات. فالمعتزل عنهم فى سلامة منها .

قال عبد الله بـن عمرو بن العاص لما ذكر رسول الله ﷺ الفتن ووصـفها وقال ﷺ : « **إذا رأيت الناس مـرجت عهـودهم ، وخفت أمـاناتهم وكانوا هكذا ، وشـبك بين أصابـعه قلت : فـما تأمرنى ؟ فـقال : الزم بيـتك وأمسك علـيك لسانك ، وخـذ ما تعرف ودع ما تنكر ، وعليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة** » (٢١٦٦) .

(٢١٦٥) حديث : « إن الجليس الصالح خير من الوحدة وإن الوحدة خير من الجليس السوء » .

قال مـرتضى : أغفله الـعراقى وقد روي مرفـوعا من حديث أبى ذر الوحـدة خير من جليس السوء والجليس الصالح خير من الوحدة وإملاء الخير خير من الصمت والصمت خير من املاء الشر أخرجه الحاكم وأبو الشيخ والعسكرى والبيهقى ورواه الديلمى من حديث أبى هريرة وقد تقدم تخريجه فى حديث رقم ١٨٠٨ ص ١٦٣٨ .

(٢١٦٦) حديث : قـال عبـد الله بن عمـرو بن العاص ﷺ : قال ﷺ : « إذا رأيت الـناس مرجت عهـودهم » أى اضطربت « وخفت أمـاناتهم » أى قلت « وكانـوا هكذا وشبك بين أصـابعه » إشارة إلـى شدة الاختـلاط « فقلـت ما تأمـرنى يا رسول الله فـقال الزم بيـتك واملك عليك لسانك» أى لا تتكلم في شيء من أمـورهم «وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمـر الخاصة ودع عنك أمر العامة » **قال العراقى:** رواه أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة بإسناد حسن. اهـ.

وروى أبو سعيد الخدري أنه ﷺ قال : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن من شاهق إلى شاهق » (٢١٦٧) .

وروى عبد الله بن مسعود أنه ﷺ قال : « سيأتى على الناس زمان لايسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ، ومن شاهق إلى شاهق ، ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذى يروغ قيل له : ومتى ذلك يا رسول الله قال: إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصى الله تعالى فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة قالوا وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزويج قال : إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يدى أبويه ، فإن لم يكن له أبوان فعلى يدى زوجته وولده ، فإن لم يكن فعلى يدى قرابته قالوا وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : يعيرونه بضيق اليد ، فيتكلف مالا يطيق حتى يورده ذلك موارد الهلكة » (٢١٦٨) .

قال مرتضى : ورواه الطبرانى من حديث سهل بن سعد بلفظ كيف ترون إذا أخرتم فى زمان حثالة الناس قد مرجت عهودهم ونذورهم فاشتبكوا فكانوا هكذا وشبك بين أصابعه قالوا الله ورسوله أعلم قال تأخذون ما تعرفون وتدعون ما تنكرون ويقبل أحدكم على خاصة نفسه ويذر أمر العامة ورواه البزار من حديث ثوبان بلفظ كيف أنتم فى قوم مرجت عهودهم وإيمانهم وإماناتهم وصاروا هكذا وشبك بين أصابعه قالوا كيف نصنع يا رسول الله قال اصبروا وخالقوا الناس باخلاقهم وخالفوهم فى أعمالهم .

(٢١٦٧) حديث : قال أبوسعيد الخدرى رضي الله عنه : قال ﷺ : « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاف الجبال » كذا فى النسخ والرواية شعف الجبال محركة وهو رأس الجبل «ومواقع القطر» أي مساقط الغيث « يفر بدينه » أى بسبب دينه « من الفتن » **قال العراقى** : رواه البخارى . اهـ.

قال مرتضى : وأخرجه مالك وأحمد وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والبخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان .

(٢١٦٨) حديث : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : قال ﷺ : « سيأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ومن شاهق إلى شاهق » وهو الجبل العالى «ومن جحر إلى جحر كالثعلب الذى يروغ قيل ومتى ذلك يا رسول الله قال إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصى الله فإذا كان ذلك الزمان » فقد « حلت العزوبة قالوا وكيف ذلك يا=

وهذا الحديث وإن كان فى العزوبة فالعزلة مفهومة منه ، إذ لا يستغنى المتأهل عن المعيشة والمخالطة ، ثم لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى ، ولست أقول هذا أوان ذلك الزمان فلقد كان هذا بأعصار قبل هذا العصر ، ولأجله قال سفيان: والله لقد حلت العزلة .

وقال ابن مسعود ﷺ : « **ذكر رسول الله ﷺ أيام الفتنة وأيام الهرج ، قلت: وما الهرج؟ قال : حين لا يأمن الرجل جليسه ، قلت : فبم تأمرنى إن أدركت ذلك الزمان ؟ قال : كف نفسك ويدك وادخل دارك ، قال : قلت يا رسول الله : أرأيت إن دخل على دارى ، قال : فادخل بيتك ، قلت : فإن دخل على بيتى ، قال : فادخل مسجدك واصنع هكذا وقبض على الكوع وقل : ربى الله حتى تموت** » (٢١٦٩) .

رسول الله وقد أمرتنا بالتزويج قال إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه فإن لم يكن له أبوان فعلى يدى زوجته وولده فإن لم يكن فعلى يدى قرابته قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال يعيرونه بضيق المعيشة فيتكلف ما لا يطيق حتى يوردوه موارد الهلكة » **قال العراقى :** تقدم فى النكاح حديث رقم ١٣٨٩ ص ١٢٣٨ . اهـ.

قال مرتضى : وقد روي مختصرا يأتى علي الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه ألا من فر به من شاهق إلى شاهق أو من جحر إلى جحر كالثعلب بأشباله وذلك فى آخر الزمان إذا لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان كذلك حلت العزوبة يكون فى ذلك الزمان هلاك الرجل على يدى أبويه إن كان له أبوان فإن لم يكن له أبوان فعلى يدى زوجته وولده فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فعلى يدى الأقارب والجيران يعيرونه بضيق المعيشة ويكلفونه ما لا يطيق حتى يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الزهد والخليلى فى الإرشاد والرافعى فى التاريخ .

(٢١٦٩) حديث : قال ابن مسعود ﷺ : « ذكر رسول الله ﷺ الفتنة وأيام الهرج » بفتح فسكون « قلت وما الهرج » يا رسول الله « قال حين لا يأمن الرجل جليسه » أى من بوائقه « قلت فبم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان قال كف نفسك ويديك » أى عن المباشرة «وادخل دارك » وأغلق عليك الباب « قال قلت أرأيت يا رسول الله أن دخل على دارى قال فادخل بيتك » أى داخل الدار « قال إن دخل على بيتى قال فادخل مسجدك » أى المخدع الذى تصلى فيه داخل البيت « واصنع هكذا وقبض علي الكوع » هو طرف الزند الذى يلى الإبهام « وقل ربى الله حتى تموت » **قال العراقى :** رواه أبو داود مختصرا والخطابى فى العزلة بتمامه وفى إسناده عند الخطابى انقطاع ووصله أبو داود بزيادة رجل اسمه سالم يحتاج إلى معرفته . اهـ.

=

وقال سعد : لما دعى إلى الخروج أيام معاوية لا إلا أن تعطونى سيفا له عينان بصيرتان، ولسان ينطق بالكافر، فاقتله وبالمؤمن فاكف عنه ، وقال : مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على محجة بيضاء فبينما هم كذلك يسيرون، إذ هاجت ريح عجاجة فضلوا الطريق ، فالتبس عليهم ، فقال بعضهم: الطريق ذات اليمين فاخذوا فيها فتاهوا وضلوا ، وقال بعضهم: ذات الشمال فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا، وأناخ آخرون وتوقفوا حتى ذهبت الريح وتبينت الطريق فسافروا .

فاعتزل سعد وجماعة معه فارقوا الفتن ، ولم يخالطوا إلا بعد زوال الفتن .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما « **أنه لما بلغه أن الحسين رضي الله عنه توجه إلى العراق تبعه فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام فقال له أين تريد ؟ فقال : العراق ، فإذا معه طوامير وكتب فقال : هذه كتبهم وبيعتهم : فقال : لا تنظر إلى كتبهم ولا تأتهم فأبى فقال : إنى أحدثك حديثا أن جبريل أتى النبى ﷺ فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا ، وإنك بضعة من رسول الله ﷺ والله لا يليها أحد منكم أبدا وما صرفها عنكم إلا للذى هو خير لكم، فأبى أن يرجع، فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال : استودعك الله من قتيل أو أسير** » (٢١٧٠) .

= **قال مرتضى :** إن كان هو الراوى عن ابن مسعود فهو سالم البراد أبو عبد الله الكوفى روى عنه عبد الملك بن عمير وإسماعيل بن أبى خالد وثقه صالح جرزة .

(٢١٧٠) حديث : قال ابن عمر رضي الله عنه : « أنه لما بلغه أن الحسين » بن على رضي الله عنه « توجه إلى العراق » حين وردت عليه كتب من الكوفة بنصرته والقيام معه وكان قد شاور جملة من الصحابة فما رضوا خروجه من المدينة فأبى فلما خرج بأهله وعياله اتبعه ابن عمر « لحقه على مسيرة ثلاثة أيام » من المدينة بعد خروجه « فقال له أين تريد فقال » أريد « العراق فإذا معه طوامير وكتب» التى وصلت إليه منهم « فقال هذه كتبهم وبيعتهم فقال لا تنظر إلى كتبهم ولا تأتهم» فإنهم لا وفاء لهم وبالأمس قتلوا أباك فكيف ينصرونك اليوم « فأبى » الحسين رضي الله عنه « فقال » ابن عمر «إنى محدثك حديثا أن جبريل أتى النبى ﷺ فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا وإنك بضعة » أى جزء « من رسول الله ﷺ والله لا يليها أحد منكم أبدا» أى الخلافة « وما صرفها عنكم إلا للذى هو خير لكم فأبى » الحسين «أن يرجع»=

وكان فى الصحابة عشرة آلاف فما خف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلا .

وجلس طاوس فى بيته فقيل له فى ذلك فقال : فساد الزمان ، وحيف الائمة .

ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه قيل له : لزمت القصر وتركت مسجد رسول الله ﷺ فقال : رأيت مساجدكم لاهية وأسواقكم لاغية والفاحشة فى فجاجكم عالية ، وفيما هناك عما أنتم فيه عافية .

فإذًا الحذر من الخصومات ومثارات الفتن إحدى فوائد العزلة .

الفائدة الرابعة : الخلاص من شر الناس فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة، ومرة بسوء الظن والتهمة ، ومرة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التى يعسر الوفاء بها ، وتارة بالنميمة أو الكذب ، فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال مالا تبلغ عقولهم كنهه ، فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فيه فرصة للشر ، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك .

ولذلك قال بعض الحكماء لغيره : أعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم قال ما هما قال:

اخفض الصوت إن نطقت بليل والتفت بالنهار قبل المقال
ليس للقول رجعة حين يبدو بقبيح يكون أو بجمال

= «وكان أمر الله قدرا مقدورا» « فعانقه ابن عمر وبكى وقال استودعك الله من قتيل أو أسير» **قال العراقى :** رواه الطبرانى مقتصرا على المرفوع ورواه فى الأوسط بذكر قصة الحسين مختصرة ولم يقل على مسيرة ثلاثة أيام وكذا رواه البزار بنحوه وإسنادهما حسن .اهـ.

قال مرتضى : والذى فى القوت ولما ودع ابن عمر الحسين بن على ﷺ بمكة وقت خروجه إلى الكوفة قال له لا تخرج ولا تطلب هذا الأمر فإن الله عز وجل يزوى عنكم الدنيا وأنتم أهل بيت اختار الله لكم الاخرة وكذلك قاله ابن عباس فقال قد جاءونى بثلاثمائة كتاب ليتسحثونى على القدوم فعانقه ابن عباس وقال استودعك الله من قتيل.اهـ. وروى الطبرانى من حديث أبى واقد رفعه خير عبد من عبيد الله بين الدنيا وملكها ونعيمها وبين الآخرة فاختار الآخرة فقال أبو بكر بل نفديك يا رسول الله بأموالنا وأنفسنا .

ولا شك أن من اختلط بالناس وشاركهم فى أعمالهم، لا ينفك من حاسد وعدو يسىء الظن به ، ويتوهم أنه يستعد ، لمعاداته ونصب المكيدة عليه ، وتدسيس غائلة وراءه ، فالناس مهما اشتد حرصهم على أمر ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ (المنافقون: ٤) .

وقد اشتد حرصهم على الدنيا ، فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها .

قال المتنبى:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عداته ... فأصبح فى ليل من الشك مظلم

وقد قيل معاشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار ، وأنواع الشر الذى يلقاه الإنسان من معارفه وممن يختلط به كثيرة ، ولسنا نطول بتفصيلها ففيما ذكرناه إشارة إلى مجامعها وفى العزلة خلاص من جميعها . وإلى هذا أشار الأكثر ممن اختار العزلة.

فقال أبو الدرداء ﵁ : « **أُخبر تقلَه** » (٢١٧١) يروى مرفوعا .

(٢١٧١) حديث : قال أبو الدرداء ﵁ : « أخبر » بضم الهمزة أمر من خبره إذا جربه « تقله » بفتح اللام وكسرها معا من قلاه يقلاه ويقليه قلى وقلى إذا أبغضه .

قال مرتضى : أغفله العراقى ويروي ذلك مرفوعا رواه أبو يعلى فى مسنده والعسكرى فى الأمثال والطبرانى فى الكبير ثلاثتهم من طريق بقية بن الوليد عن أبى بكر بن أبى مريم عن عطية بن قيس وقال الطبراني فى روايته عن عطية المذبوح ثم اتفقوا عن أبى الدرداء رفعه به وكذا أخرجه ابن عدى فى كامله من جهة بقية بلفظ وجدت الناس أخبر تقله ورواه الحسين بن سفيان ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية من طريق بقية أيضا باللفظ الأول لكنه قال عن أبى عطية المذبوح ورواه الطبرانى فى الكبير والعسكرى فى الأمثال من حديث أبى حيوة شريح بن يزيد عن أبى بكر بن أبى مريم عن سعيد بن عبيد الله الأفطس وسفيان بن المذبوح كلاهما عن أبى الدرداء أنه كان يقول ثق بالناس رويدا ويقول أخبر تقله وكلها ضعيفة فابن أبى مريم وبقية ، ضعيفان ورواه العسكرى من حديث مؤثرة بن محمد حدثنا سفيان عن سعيد بن حسان عن مجاهد وجدت الناس كما قيل أخبر من شئت تقله .

وقال الشاعر :

من حـــمـــد الـناس ولم يـبلـهم ثـم بلاهـم ذم من يـحـــمـــد
وصـــار بالـوحــدة مـســتـــأنسًـا يوحـــشـــه الأقـــرب والأبـعـــد

وقال عمر ﷺ : فى الـعزلة راحة من القرين السوء ، وقيل لعـبد الله بن الزبير ألا تأتى المدينة ، فقال : ما بقى فيها إلا حاسد نعمة أو فرح بنقمة .

وقال ابن السماك : كتب صاحب لنـا : أمَا بعد ، فإن الناس كانوا دواء يتداوى، فصاروا داء لا دواء له ، ففر منهم فرارك من الأسد .

وكان بعض الأعراب يلازم شجرا ويقول : هــو نديم فيه ثلاث خصال ؛ إن سمع منى لم ينم على ، وإن تفلت فى وجـهه احتـمل منى ، وإن عربدت عليـه لم يغضب فسمع الرشيد ذلك فقال : زهدنى فى الندماء .

وكان بعضـــهم قد لزم الدفاتر والمقابر فقـيل له : فى ذلك فقال : لم أر أسلم من وحدة ولا أوعظ من قبر ولا جليسا أمتع من دفتر .

وقال الحسن ﷺ : أردت الحـج فسمع ثابت البنانى بذلك وكان أيضـا من أولياء الله فقال : بلغنى أنك تريد الحج ، فأحببت أن أصحبك فقال له الحسن : ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا أنى أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما نتماقت عليه .

وهذه إشـــارة إلى فائدة أخــرى فى العزلة ، وهو بقــاء الستـر على الدين والمروءة والأخلاق والفقر وساتر العورات .

وقد مدح الله سبحانه المتسترين فقال: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ (البقرة : ٢٧٣) .

وقال الشاعر:

ولا عــار إن زالـت عن الحـر نعــمـة ولكـن عــاراً أن يزول الـتــجـــمل

ولا يخلو الإنسان فى دينه ودنياه وأخلاقه وأفعاله عن عورات الأولى فى الدين والدنيا سترها ولا تبقى السلامة مع انكشافها .

وقال أبو الدرداء : كان الناس ورقا لا شوك فيه ، فالناس اليوم شوك لا ورق فيه. وإذا كان هذا حكم زمانه وهو فى أواخر القرن الأول فلا ينبغى أن يشك فى أن الأخير شر .

وقال سفيان بن عيينة قال لى سفيان الثوري فى اليقظة فى حياته وفى المنام بعد وفاته : أقلل من معرفة الناس ، فإن التخلص منهم شديد ، ولا أحسب أنى رأيت ما أكره إلا ممن عرفت .

وقال بعضهم : جئت إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته فذهبت أطرده فقال : دعه يا هذا، هذا لا يضر ولا يؤذى ، وهو خير من الجليس السوء .

وقيل لبعضهم : ما حملك على أن تعتزل الناس . قال : خشيت أن أسلب دينى ولا أشعر .

وهذه إشارة إلى مسارقة الطبع من أخلاق القرين السوء .

وقال أبو الدرداء : اتقوا الله واحذروا الناس ، فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه، ولا ظهر جواد إلا عقروه ، ولا قلب مؤمن إلا خربوه .

وقال بعضهم : أقلل المعارف فإنه أسلم لدينك وقلبك ، وأخف لسقوط الحقوق عنك لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع .

وقال بعضهم : أنكر من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعرف .

الفائدة الخامسة : أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس . فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد . فإن رضا الناس غاية لا تدرك ، فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى ، ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة ، وعيادة المريض، وحضور الولائم والإملاكات ، وفيها تضييع الأوقات وتعرض للآفات، ثم قد تعوق عن بعضها العوائق وتستقبل فيها المعاذير ، ولا يمكن إظهار كل الأعذار ، فيقولون له: قمت بحق فلان وقصرت في حقنا ويصير ذلك سبب عداوة .

فقد قيل : من لم يعد مريضا في وقت العيادة اشتهى موته خيفة من تخجيله . إذا صح على تقصيره ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم ولو خصص استوحشوا ؛ وتعميمهم بجميع الحقوق لا يقدر عليه المتجرد له طول الليل والنهار فكيف من له مهم يشغله في دين أو دنيا .

قال عمرو بن العاص : كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء .

وقال ابن الرومي :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وقال الشافعي رحمه الله : « **أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام** » (٢١٧٢) .

وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضا فائدة جزيلة، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر

(٢١٧٢) حديث : قال الشافعي ﷺ : « أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام» .

قال مرتضى : أغفله العراقي ورواه البيهقي والأبري وغيرهما في مناقب الشافعي ولفظهم الصنيعة إلى الأندال وأخرجه أبو نعيم في ترجمة سفيان الثوري من طريق ابن حنيف حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله قال سمعت الثوري يقول وجدنا أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام .

الأحوال، فيتأذى بذلك ، ومهما اعتزل لم يشاهد ، وإذا لم يشاهد لم يشته ولم يطمع .

ولذلك قال الله تعالى: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ (الحجر : ٨٨) .

وقال ﷺ : « **انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم ، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**» (٢١٧٣) .

وقال عون بن عبد الله : كنت أجالس الأغنياء فلم أزل مغموما ، كنت أرى ثوبا أحسن من ثوبي ودابة أفره من دابتي ، فجالست الفقراء، فاسترحت .

وحكى أن المزني رحمه الله خرج من باب جامع الفسطاط وقد أقبل ابن عبد الحكم في موكبه فبهره ما رأى من حسن حاله وحسن هيئته فتلا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ (الفرقان: ٢٠) .

ثم قال بلى أصبر وأرضى وكان فقيرا مقلا ، فالذى هو فى بيته لا يبتلى بمثل هذه الفتن ، فإن من شاهد زينة الدنيا فإما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر فيحتاج إلى أن يتجرع مرارة الصبر وهو أمر من الصبر ، أو تنبعث رغبته فيحتال فى طلب الدنيا فيهلك هلاكا مؤبدا .

أما فى الدنيا ، فبالطمع الذى يخيب فى أكثر الأوقات ، فليس كل من يطلب الدنيا تتيسر له .

وأما فى الآخرة فبإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى ، والتقرب إليه .

(٢١٧٣) حديث : قال ﷺ : « انظروا إلى من هو دونكم » وفى رواية إلى من هو أسفل منكم أى فى أمور الدنيا « ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا » أى لا تحتقروا «نعمة الله عليكم » **قال العراقى :** رواه مسلم من حديث أبى هريرة .اهـ.

قال مرتضى : وكذلك رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحكيم فى نوادر الأصول .

ولذلك قال ابن الأعرابى .

إذا كـان باب الذل من جـانب الغنى سمـوت إلى العلياء من جانب الفـقر

أشار إلى أن الطمع يوجب فى الحال ذلا .

الفـائدة السـادسـة : الخلاص من مشاهدة الثقـلاء والحمقى ، ومقـاساة حمـقهم وأخلاقهم. فإن رؤية الثقيل هى العمى الأصغر .

قيل للأعمش : مم عـمشت عيناك ؟ قال : من النظر إلى الثـقلاء ، ويحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة ، فقال فى الخبر : « **إن من سلب الله كريمتيه عوضه الله عنهما ما هو خير منهما** » (٢١٧٤) .

(٢١٧٤) حديث : قال ﷺ : « من سلب الله كريمتيه » أى عينيـه ويقال للعين كريمة لكرامتها على صاحبها «عوضه عنهما ما هو خير منهما» **قال العراقى :** رواه الطبرانى باسناد ضعيف من حديث جرير من سلبت كريمتيه عوضته عنهما الجنة وله ولأحمد نحوه من حديث أبى أمامة بسند حسن وللبخارى من حديث أنس يقول الله تبارك وتعالى إذا ابـتليت عبدى بحبيبتيه ثم صبر عوّضته منهما الجنة يريد عينيه .اهـ.

قال مرتضى : حديث جرير رواه الطبرانى فى الأوسط بهـذا اللفظ بزيادة قال الله تعالى وهو فى الكبير أيضـا إلا أنه وقع فى النسخة عن جويبر وكأنه تحـريف من النساخ وقد روى ذلك أيضا من حديث أبى هريرة يقول الله عـز وجل من أذهبت حبيبتيه فصـبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة رواه هناد والترمذى وقال حسن صحيح ومن حديث أبى أمامة يقول الله تعالى يا ابن آدم إذا أخذت كـريمتيك فصبرت واحتسـبت عند الصدمة الأولى لم أر لك ثوابا دون الجنة رواه أحمـد وأبو داود ورواه الطبرانى فى الكبـير بلفظ قال ربكم إذا قـبضت كريمة عبدى وهو بها ضنين فـحمدني على ذلك لم أرض له ثوابا دون الجنة ومن حديث ابن عباس قـال الله تعالى إنى إذا أخذت كريمتى عـبدى فصبر واحـتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة ورواه أبو يعلى والطبـرانى فى الكبيـر والضياء فى المخـتارة ومن حديـث العرباض بن سارية قال الله عز وجل إذا قبضت من عبدى كريمتيه وهو بهما ضنين لم أرض له بهما ثوابا إلا الجنة إذا حمدنى عـليهما رواه ابن حبـان والطبرانى فى الكبير وأبو نعـيم فى الحلية وابن عسـاكر فى التـاريخ وأما حديـث أنس الذى أخرجه البـخارى فـقد أخرجـه كذلك أحـمد والطبرانى فى الكبـير فأخـرجه من حديث جـرير بهذا اللفظ وروي بلفظ آخر قـال الله عز وجل لا أقبض كريمـتى عبدى فيصـبر لحكمى ويرضى لقضائى فـأرضى له بثواب دون الجنة=

فما الذى عوضك ؟ فقال فى معرض المطايبة : عوضنى الله عنهما أنه كفانى رؤية الثقلاء وأنت منهم .

وقال ابن سيرين : سمعت رجلا يقول : نظرت إلى ثقيل مرة فغشى على .

وقال جالينوس لكل شىء حمى، وحمى الروح النظر إلى الثقلاء .

وقال الشافعى رحمه الله : ما جالست ثقيلا إلا وجدت الجانب الذى يليه من بدنى كأنه أثقل على من الجانب الآخر .

وهذه الفوائد ما سوى الأولين متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة . ولكنها أيضا تتعلق بالدين ، فإن الإنسان مهما تأذى برؤية ثقيل لم يأمن أن يغتابه ، وإن يستنكر ما هو صنع الله فإذا تأذى من غيره بغيبة أو سوء ظن أو محاسدة أو نميمة أو غير ذلك لم يصبر عن مكافأته .

وكل ذلك يجر إلى فساد الدين ، وفى العزلة سلامة عن جميع ذلك فليفهم .

آفات العزلة

اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد بالاستعانة بالغير ، ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة ، فكل ما يستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة . وفواته من آفات العزلة .

فانظر إلى فوائد المخالطة والدواعى إليها ما هى ؟ وهى التعليم والتعلم ، والنفع والانتفاع والتأديب والتأدب والاستئناس ، والإيناس ونيل الثواب ، وإنالته في القيام بالحقوق واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها .

= رواه هكذا عبد بن حميد وسمويه فى فوائده وابن عساكر ورواه أبو يعلى بلفظ قال ربكم من أذهبت كريمتيه ثم صبر واحتسب كان ثوابه الجنة .

فلنفصل ذلك فإنها من فوائد المخالطة **وهى سبع :**

الفائدة الأولى : التعليم والتعلم وقد ذكرنا فضلهما فى كتاب العلم . وهما أعظم العبادات فى الدنيا ولا يتصوّر ذلك إلا بالمخالطة إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مندوحة ، وبعضها ضرورى فى الدنيا ، فالمحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة وإن تعلم الفرض ، وكان لا يتأتى منه الخوض فى العلوم ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل ، وإن كان يقدر على التبرز فى علوم الشرع والعقل ، فالعزلة فى حقه قبل التعلم غاية الخسران ولهذا قال النخعى وغيره : تفقه ثم اعتزل ومن اعتزل قبل التعلم فهو فى الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر فى هوس ، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها ، ولا ينفك فى أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور يخيب سعيه، ويبطل عمله ، بحيث لا يدرى ولا ينفك اعتقاده فى الله وصفاته عن أوهام يتوهمها ويأنس بها وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها، فيكون فى أكثر أحواله ضحكة للشيطان ، وهو يرى نفسه من العباد .

فالعلم هو أصل الدين فلا خير فى عزلة العوام والجهال ، أعنى من لا يحسن العبادة فى الخلوة ولايعرف جميع ما يلزمه فيها ، فمثال النفس مثال مريض يحتاج إلى طبيب متلطف يعالجه ، فالمريض الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف لا محالة مرضه ، فلا تليق العزلة إلا بالعالم .

وأما التعليم ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم ، ومهما كان القصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والاتباع ، فهو هلاك الدين .

وقد ذكرنا وجه ذلك فى كتاب العلم وحكم العالم فى هذا الزمان أن يعتزل إن أراد سلامة دينه ، فإنه لا يرى مستفيدا يطلب فائدة لدينه ، بل لا طالب إلا لكلام مزخرف يستميل به العوام فى معرض الوعظ ، أو الجدل معقد يتوصل به إلى افحام الأقران ، ويتقرب به إلى السلطان ، ويستعمل فى معرض المنافسة والمباهاة وأقرب علم

مرغوب فيه المذهب ، ولا يطلب غالبا إلا للتوصل إلى التقدم على الامثال ، وتولى الولايات واجتلاب الأموال ، فهؤلاء كلهم يقتضي الدين والحزم الاعتزال عنهم ، فإن صودف طالب لله ومتقرب بالعلم إلى الله تعالى فاكبر الكبائر الاعتزال عنه وكتمان العلم منه ، وهذا لا يصادف في بلدة كبيرة أكثر من واحد أو اثنين إن صودف .

ولا ينبغى أن يغتر الإنسان بقول سفيان تعلمنا العلم لغير الله ، فأبى العلم أن يكون إلا لله، فإن الفقهاء يتعلمون لغير الله ثم يرجعون إلي الله ، وانظر إلى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتبرهم أنهم ماتوا وهم هلكى على طلب الدنيا ، ومتكالبون عليها أو راغبون عنها وزاهدون فيها : « **وليس الخبر كالمعاينة** »(٢١٧٥) .

واعلم أن العلم الذى أشار إليه سفيان هو علم الحديث وتفسير القرآن ، ومعرفة سير الأنبياء والصحابة ، فإن فيها التخويف والتحذير وهو سبب لإثارة الخوف من الله، فإن لم يؤثر فى الحال أثر فى المآل .

وأما الكلام والفقه المجرد الذى يتعلق بفتاوي المعاملات وفصل الخصومات المذهب منه والخلاف لا يرد الراغب فيه للدنيا إلى الله ، بل لا يزال متماديا فى حرصه إلى آخر عمره .

(٢١٧٥) حديث : « ليس الخبر كالمعاينة » .

قال مرتضى : أغفله العراقى وهو حديث مرفوع رواه أحمد وابن منيع والعسكرى من طريق جعفر بن أبى وحشية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وأورده الدارقطنى فى الإفراد من طريق غندر عن شعبة والطبرانى فى الأوسط من طريق محمد بن عيسى الطباع كلاهما عن هشيم عن ابن أبى وحشية قال الدارقطنى تفرد به خلف بن سالم عن غندر عن شعبة وكذا رواه أبو عوانة عن ابن أبى وحشية أخرجه ابن حبان والعسكرى أيضا وقد صحح هذا الحديث ابن حبان والحاكم وغيرهما وأورده الضياء فى المختارة وممن روى عن هشيم أيضا أحمد وزياد بن أيوب والنضر بن طاهر والمأمون وأبو القاسم البغوى قال الحافظ السخاوى وقول ابن عدى أن هشيما لم يسمعه من ابن أبى وحشية وإنما سمعه من أبى عوانة عنه فدلسه لا يمنع صحته لا سيما وقد رواه الطبرانى وابن عدى وأبو يعلى الخليلى فى الإرشاد من حديث ثمامة عن أنس ومن هذا الوجه أيضا أورده الضياء فى المختارة وفى لفظ ليس المعاين كالمخبر .

ولعل ما أودعناه هذا الكتاب أن تعلمه المتعلم رغبة فى الدنيا ، فيجوز أن يرخص فيه إذ يرجى أن ينزجر به فى آخر عمره ، فإنه مشحون بالتخويف بالله والترغيب فى الآخرة والتحذير من الدنيا ، وذلك مما يصادف فى الأحاديث وتفسير القرآن ، ولا يصادف فى كلام ولا فى خلاف ولا فى مذهب فلا ينبغى أن يخادع الإنسان نفسه ، فإن المقصر العالم بتقصيره أسعد حالا من الجاهل المغرور أو المتجاهل المغبون .

وكل عالم اشتد حرصه على التعليم يوشك أن يكون غرضه القبول والجاه ، وحظه تلذذ النفس فى الحال باستشعار الادلال على الجهال ، والتكبر عليهم « **فآفة العلم الخيلاء** » (٢١٧٦) كما قال ﷺ .

ولذلك حكى عن بشر أنه دفن سبعة عشر قمطرًا من كتب الأحاديث التى سمعها ، وكان لا يحدث ويقول : إنى أشتهى أن أحدث فلذلك لا أحدث ، ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت .

ولذلك قال حدثنا باب من أبواب الدنيا وإذا قال الرجل : حدثنا فإنما يقول : أوسعوا لى .

وقالت رابعة العدوية لسفيان الثورى : نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا قال : وفيماذا رغبت ؟ قالت : فى الحديث .

ولذلك قال أبو سليمان الدارانى : من تزوج أو طلب الحديث أو اشتغل بالسفر، فقد ركن إلى الدنيا .

(٢١٧٦) حديث : قال ﷺ : « آفة العلم الخيلاء » **قال العراقى :** المعروف ما رواه مطين فى مسنده من حديث على بن أبى طالب بسنده ضعيف آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء .اهـ.

قال مرتضى : رواه البيهقى فى الشعب وابن لال فى مكارم الأخلاق بلفظ آفة الظرف الصلف وآفة الشجاعة البغى وآفة السماحة المن وآفة الجمال الخيلاء وآفة العبادة الفترة وآفة الحديث الكذب وآفة العلم النسيان وآفة الحلم السفه وآفة الحسب الفخر وآفة الجود السرف .

فهذه آفات قد نبهنا عليها فى كتاب العلم والحزم الاحتراز بالعزلة ، وترك الاستكثار من الأصحاب ما أمكن ، بل الذى يطلب الدنيا بتدريسه وتعلمه فالصواب له - إن كان عاقلا - فى مثل هذا الزمان أن يتركه .

فلقد صدق أبو سليمان الخطابى حيث قال : دع الراغبين فى صحبتك والتعلم منك ، فليس لك منهم مال ولا جمال ، إخوان العلانية أعداء السر إذا لقوك تملقوك ، وإذا غبت عنهم سلقوك ، من أتاك منهم كان عليك رقيبا ، وإذا خرج كان عليك خطيبا ، أهل نفاق ونميمة وغل وخديعة فلا تغتر باجتماعهم عليك ، فما غرضهم العلم ، بل الجاه والمال ، وإن يتخذوك سلما ، إلى أوطارهم وأغراضهم وحمارا فى حاجاتهم إن قصرت في غرض من أغراضهم كانوا أشد أعدائك ، ثم يعدون ترددهم إليك دالة عليك ويرونه حقا واجبا لديك ويفرضون عليك أن تبذل عرضك ، وجاهك ودينك لهم فتعادى عدوهم ، وتنصر قريبهم وخادمهم ووليهم وتنتهض لهم سفيها . وقد كنت فقيها وتكون لهم تابعا خسيسا ، بعد أن كنت متبوعا رئيسا .

ولذلك قيل : اعتزال العامة مروءة تامة ، فهذا معنى كلامه ، وإن خالف بعض ألفاظه وهو حق وصدق ، فإنك ترى المدرسين فى رق دائم وتحت حق لازم ، ومنة ثقيلة ممن يتردد إليهم فكأنه يهدى تحفة إليهم ويرى حقه واجبا عليهم وربما لا يختلف إليه ما لم يتكفل برزق له على الإدرار ، ثم إن المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك من ماله فلا يزال مترددا إلى أبواب السلاطين ، ويقاسى الذل والشدائد مقاساة الذليل المهين حتى يكتب له على بعض وجوه السحت مال حرام . ثم لا يزال العامل يسترقه ويستخدمه ويمتهنه ويستذله إلى أن يسلم إليه ما يقدره نعمة مستأنفة من عنده عليه ، ثم يبقى فى مقاساة القسمة على أصحابه . إن سوى بينهم مقته المميزون ونسبوه إلى الحمق وقلة التمييز والقصور عن درك مصارفات الفضل ، والقيام فى مقادير الحقوق بالعدل وإن فاوت بينهم سلقه السفهاء بألسنة حداد ، وثاروا عليه ثوران الأساود والآساد . فلا يزال فى مقاساتهم فى الدنيا وفى مطالبة ما يأخذه ويفرقه عليهم فى العقبى .

والعجب أنه مع هذا البلاء كله يمنى نفسه بالأباطيل ويدليها بحبل الغرور ويقول لها : لا تفترى عن صنيعك فإنما أنت بما تفعلينه مريدة وجه الله تعالى ، ومذيعة شرع رسول الله ﷺ وناشرة علم دين الله ، وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله وأموال السلاطين لا مالك لها وهى مرصدة للمصالح ، وأى مصلحة أكبر من تكثير أهل العلم فبهم يظهر الدين ويتقوى أهله ، ولو لم يكن ضحكة للشيطان لعلم بادنى تأمل أن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون ما يجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام ، فتلحظهم أعين الجهال ويستجرئون على المعاصى باستجرائهم اقتداء بهم واقتفاء لآثارهم .

ولذلك قيل ما فسدت الرعية إلا بفساد الملوك ، وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء . فنعوذ بالله من الغرور والعمى فإنه الداء الذى ليس له دواء .

الفائدة الثانية : النفع والانتفاع : - أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة . والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة ، فيقع فى جهاد من المخالطة إن طلب موافقة الشرع فيه كما ذكرناه فى كتاب الكسب ، فإن كان معه ما لو اكتفى به قانعا لاقنعه .

فالعزلة أفضل له أن انسدت طرق المكاسب فى الأكثر إلا من المعاصى إلا أن يكون غرضه الكسب للصدقة ، فإذا اكتسب من وجهه وتصدق به فهو أفضل من العزلة للاشتغال بالنافلة . وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق فى معرفة الله ومعرفة علوم الشرع ، ولا من الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى والتجرد بها لذكر الله ، أعنى من حصل له أنس بمناجاة الله عن كشف وبصيرة لا عن أوهام وخيالات فاسدة .

وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله ، أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة ففى النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة ، ومن قدر عليها مع القيام بحدود الشرع فهى أفضل له من العزلة إن كان لا يشتغل فى عزلته

إلا بنوافل الصلوات والأعمال البدنية وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك لا يعدل به غيره البتة .

الفائدة الثالثة : التأديب والتأدب : ونعنى به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة فى تحمل أذاهم كسراً للنفس ، وقهراً للشهوات . وهى من الفوائد التى تستفاد بالمخالطة وهى أفضل من العزلة فى حق من لم تتهذب أخلاقه ، ولم تذعن لحدود الشرع شهواته .

ولهذا انتدب خدام الصوفية فى الرباطات فيخالطون الناس بخدمتهم ، وأهل السوق للسؤال منهم كسرا لرعونة النفس واستمدادا من بركة دعاء الصوفية المنصرفين بهممهم إلى الله سبحانه وكان هذا هو المبدأ فى الأعصار الخالية .

والآن قد خالطته الأغراض الفاسدة ، ومال ذلك عن القانون كما مالت سائر شعائر الدين فصار يطلب من التواضع بالخدمة التكثير بالاستتباع والتذرع إلى جمع المال والاستظهار بكثرة الاتباع ، فإن كانت النية هذه فالعزلة خير من ذلك ، ولو إلى القبر ، وإن كانت النية رياضة النفس فهى خير من العزلة فى حق المحتاج إلى الرياضة ، وذلك مما يحتاج إليه فى بداية الإرادة .

فبعد حصول الارتياض ينبغى أن يفهم أن الدابة لا يطلب من رياضتها عين رياضتها بل المراد منها أن تتخذ مركبا يقطع به المراحل ويطوى على ظهره الطريق . والبدن مطية للقلب يركبها ليسلك بها طريق الآخرة ؛ وفيها شهوات إن لم يكسرها جمحت به في الطريق .

فمن اشتغل طول العمر بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمر الدابة برياضتها ولم يركبها ، فلا يستفيد منها إلا الخلاص فى الحال من عضها ورفسها ورمحها ، وهى لعمرى فائدة مقصودة ، ولكن مثلها حاصل من البهيمة الميتة .

وإنما تراد الدابة لفائدة تحصل من حياتها فكذلك الخلاص من ألم الشهوات فى الحال يحصل بالنوم والموت ، ولا ينبغى أن يقنع به كالراهب الذى قيل له : يا راهب؛ فقال ما أنا راهب ، إنما أنا كلب عقور ، حبست نفسى حتى لا أعقر الناس ، وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر الناس ، ولكن لا ينبغى أن يقتصر عليه، فإن من قتل نفسه أيضا لم يعقر الناس ، بل ينبغي أن يتشوّف إلى الغاية المقصودة بها ، ومن فهم ذلك واهتدى إلى الطريق وقدر على السلوك استبان له أن العزلة أعون له من المخالطة . فالأفضل لمثل هذا الشخص المخالطة أولا ، والعزلة آخرا .

وأما التأديب فإنما نعنى به أن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية معهم ، فإنه لا يقدر علي تهذيبهم إلا بمخالطتهم وحاله حال المعلم ، وحكمه حكمه ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ما يتطرق إلى نشر العلم .

إلا أن مخايل طلب الدنيا من المريدين الطالبين للارتياض أبعد منها من طلبة العلم ولذلك يرى فيهم قلة وفى طلبة العلم كثرة ، فينبغى أن يقيس ما تيسر له من الخلوة، بما تيسر له من المخالطة وتهذيب القوم ، وليقابل أحدهما بالآخر وليؤثر الأفضل وذلك يدرك بدقيق الاجتهاد ويختلف بالأحوال والأشخاص ، فلا يمكن الحكم عليه مطلقا بنفى ولا إثبات .

الفائدة الرابعة : الاستئناس والإيناس : وهو غرض من يحضر الولائم والدعوات ومواضع المعاشرة والأنس ، وهذا يرجع إلى حظ النفس فى الحال .

وقد يكون ذلك على وجه حرام ، بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته ، أو على وجه مباح وقد يستحب ذلك لأمر الدين وذلك فيمن يستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله فى الدين ، كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى .

وقد يتعلق بحظ النفس ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعى النشاط فى العبادة : « **فإن القلوب إذ أكرهت عميت** » (٢١٧٧) .

ومهما كان فى الوحدة وحشة ، وفى المجالسة أنس يروح القلب ، فهى أولى إذ الرفق فى العبادة من حزم العبادة .

ولذلك قال ﷺ : « **إن الله لا يمل حتى تملوا** » (٢١٧٨) .

وهذا أمر لا يستغنى عنه ، فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروح . وفى تكليفها الملازمة داعية للفترة .

وهذا عنى بقوله ﷺ : « **إن هذا الدين متين فاوغل فيه برفق والايغال فيه برفق دأب المستبصرين** » (٢١٧٩) .

(٢١٧٧) حديث : « القلوب إذا أكرهت عميت » .

قال مرتضى : أغفله العراقى وأخرج أبو داود فى مراسيله عن الزهرى مرسلاً ووصله الديلمى من طرق أبى الظاهر الموقرى عن الزهرى عن أنس رفعه روّحوا القلوب ساعة وساعة وأخرجه ابن المقرى فى فوائده ومن طريقه القضاعى فى الشهاب وفى صحيح مسلم من حديث حنظلة يا حنظلة ساعة وساعة .

(٢١٧٨) حديث : قال ﷺ : « إن الله لا يمل حتى تملوا » **قال العراقى :** تقدم تخريجه قبل ذلك . اهـ .

قال مرتضى : وقال البخارى فى صحيحه حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يحيى عن هشام قال أخبرنى أبي عن عائشة رضي الله عنها أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها امرأة فقال من هذه قالت فلانة تذكر من صلاتها قال مه عليكم بما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه والملالة من السآمة والضجر .

(٢١٧٩) حديث : قال ﷺ : « إن الدين متين والإيغال فيه برفق دأب المستبصرين » .

قال مرتضى : أغفله العراقى وأشار به إلى ما رواه أحمد من حديث أنس رفعه أن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق وروى البزار من حديث جابر مرفوعا أن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى وقول : فمن يشاد هذا الدين يغلبه ، أخرج البخارى فى الصحيح من طريق سعيد المقبرى عن أبى هريرة رفعه إن الدين يسر ولن=

ولذلك قال ابن عباس : لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس ، وقال مرة : لدخلت بلادًا لا أنيس بها وهل يفسد الناس إلا الناس ، فلا يستغنى المعتزل إذًا عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته فى اليوم والليلة ساعة . فليجتهد فى طلب من لا يفسد عليه فى ساعته تلك سائر ساعاته .

فقد قال ﷺ : « **المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل** » .

وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء فى أمور الدين ، وحكاية أحوال القلب وشكواه ، وقصوره عن الثبات على الحق والاهتداء إلى الرشد . ففى ذلك متنفس ومتروح للنفس ، وفيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه ، فإنه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعمارا طويلة ؛ والراضى عن نفسه مغرور قطعا .

فهذا النوع من الاستئناس فى بعض أوقات النهار ربما يكون أفضل من العزلة فى حق بعض الأشخاص فليتفقد فيه أحوال القلب وأحوال الجليس أولاً ثم ليجالس .

الفائدة الخامسة : فى نيل الثواب وإنالته : أما النيل فبحضور الجنائز وعيادة المرضى وحضور العيدين ، وأما حضور الجمعة فلابد منه وحضور الجماعة فى سائر الصلوات أيضا لا رخصة فى تركه إلا لخوف ضرر ظاهر يقاوم ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه ، وذلك لا يتفق إلا نادرا ؛ وكذلك فى حضور الإملاكات والدعوات ثواب من حيث أنه إدخال سرور على قلب مسلم .

وأما إنالته ، فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس ، أو ليعزوه فى المصائب أو يهنوه على النعم فإنهم ينالون بذلك ثوابا .

= يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا .... الحديث هكذا هو فى رواية الأصيلى ورواه كذلك أبو نعيم وابن حبان الإسماعيلى والنسائى.

وكـذلك إذا كان من العلمـاء وأذن لهم فى الزيارة نالوا ثواب الزيارة ، وكـان هو بالتمكين سببا فيه .

فينبـغى أن يزن ثواب هذه المخالطات بآفـاتها التى ذكرناه ، وعـند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة .

فقد حكى عن جـماعة من السلف مثل مـالك وغيره ترك إجابة الدعـوات وعيادة المرضى ، وحضور الجنائز بل كانوا أجلاس بيوتهم لا يخرجون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبـور ، وبعضـهـم فارق الأمـصار وانحـاز إلى قلل الجبـال تفرغـا للعبـادة وفرارا من الشواغل .

الفائدة السادسة : من المخالطة التواضع : فإنه من أفضل المقـامات ولا يقدر عليه فى الوحدة ، وقد يكون الكبر سببا فى اختيار العزلة ، فقد روى فى الاسرائيليات أن حكيما من الحكمـاء صنف ثلاثمائة وستين مصحفا فى الحكـمة حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة ، فأوحى الله إلى نبـيه قل لفلان: إنك قد مـلأت الأرض نفاقا وأنى لا أقبل من نفاقك شيئا ، قال : فـتخلى وانفرد فى سرب تحت الأرض ، وقال : الآن قد بلغت رضا ربى فـأوحى الله إلى نبيه قل له : إنك لن تبلغ رضاى حـتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم ، فخرج فـدخل الأسواق ، وخالط الناس وجالسهم وواكلهم وأكل الطعـام بينهم ومشى فى الأسـواق معـهم ، فـأوحى الله تعالى إلى نبـيه الآن قـد بلغ رضاى.

فكم من معتزل فى بيته وباعثـه الكبر ، ومانعه عن المحافل أن لا يوقر أو لا يقدم أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحله وأبقى لطراوة ذكره بين الناس .

وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لـو خالط ، فلا يعتقد فيه الزهد والاشتغال بالعبادة ، فيتخذ البيت سترا على مـقابحه ابقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبده من غير استغراق وقت فى الخلوة بذكر أو فكر .

وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ، ولا يحبون أن يزوروا ويفرحون بتقرب العوام والسلاطين إليهم واجتماعهم على بابهم ، وطرقهم وتقبيلهم أيديهم على سبيل التبرك ؛ ولو كان الاشتغال بنفسه هوالذى يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليه زياراتهم له كما حكيناه عن الفضيل حيث قال : وهل جئتنى إلا لأتزين لك وتتزين لى.

وعن حاتم الأصم أنه قال للأمير الذى زاره : حاجتى أن لا أراك ولا ترانى ، فمن ليس مشغولا مع نفسه بذكر الله فاعتزاله عن الناس سببه شدة اشتغاله بالناس، لأن قلبه متجرد للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام والعزلة بهذا السبب جهل **من وجوه** :

أحدها : أن التواضع والمخالطة لا تنقص من منصب من هو متكبر بعلمه ، أو دينه إذ كان على رضي الله عنه يحمل التمر والملح فى ثوبه ويده ويقول :

لا ينقص الكامل من كماله ما جر من نفع إلى عياله

وكان أبو هريرة وحذيفة وأبىّ وابن مسعود رضي الله عنهم يحملون حزم الحطب وجرب الدقيق على أكتافهم .

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول وهو والى المدينة ، والحطب على رأسه : طرقوا لأميركم .

« وكان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم يشترى الشىء فيحمله إلى بيته بنفسه ، فيقول له صاحبه اعطنى أحمله فيقول : صاحب الشىء أحق بحمله » (٢١٨٠) .

(٢١٨٠) حديث : « كان » صلى الله عليه وسلم « يشترى الشىء » من السوق « ويحمله إلى بيته بنفسه فيقول له صاحبه » الذى معه « اعطنى » يا رسول الله « أحمله » عنك « فيقول صاحب المتاع أحق بحمله » **قال العراقى** : رواه أبو يعلى من حديث أبى هريرة بسند ضعيف فى حمله السراويل الذى اشتراه .اهـ.

قال مرتضى : ولفظه عند أبي يعلى فى المسند صاحب المتاع أحق به أن يحمله إلا أن يكون ضعيفا يعجز عنه فيعينه عليه أخوه المسلم وأخرجه كذلك ابن حبان فى الضعفاء والطبرانى فى الأوسط والدارقطنى فى الإفراد والعقيلى فى الضعفاء وابن عساكر فى التاريخ=

وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يمر بالسؤال وبين أيديهم كسر ، فيقولون : هلم إلى الغداء يا ابن رسول الله ، فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويركب ويقول: إن الله لا يحب المستكبرين .

الوجه الثاني: أن الذي شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه ، وتحسين اعتقادهم فيه مغرور ، لأنه لو عرف الله حق المعرفة ، علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئا ، وأن ضرره ونفعه بيد الله ولا نافع ولا ضار سواه ، «**وإن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**» (٢١٨١).

= وأورده صاحب الشفاء بدون عزو ولفظهم صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله إلا أن يكون ضعيفا ولفظ الطبراني في الأوسط قال أبو هريرة دخلت يوما السوق مع رسول الله ﷺ فجلس إلى البزازين فاشترى سراويل بأربعة دراهم وكان لأهل السوق وزان يزن فقال له اتزن وأرجح فقال الوزان هذه كلمة ما سمعتها من أحد قال أبو هريرة كفى بك من الوهن والجفاء أن لا تعرف نبيك فطرح الميزان ووثب إلى يده يريد تقبيلها فجذب يده وقال إنما تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك إنما أنا رجل منكم فوزن وأرجح قال أبو هريرة فذهبت أحمله عنه فذكره فأبى أبو هريرة الحديث وهكذا سياقه عند أبي يعلى أيضا **قال الحافظ العراقي** وابن حجر والسخاوي ضعيف بل بالغ ابن الجوزي فحكم بوضعه وقال إن فيه يوسف بن زياد عن عبد الرحمن الأفريقي ولم يروه عنه غيره وأرده الحافظ السيوطي في تعقباته عليه بأنه لم ينفرد به يوسف فقد خرجه البيهقي في الشعب والأدب من طريق حفص بن عبد الرحمن ورد عليه بأن ابن حبان قال في حفص هذا يروي الموضوعات عن الثقات فهو كاف في الحكم بوضعه وأخرجه الديلمي من حديث أبي بكر الصديق رفعه من اشترى لعياله شيئا ثم حمله إليهم حط عنه ذنب سبعين سنة وهو ضعيف أيضا وقال السخاوي أحسبه باطلا والله أعلم .

(٢١٨١) حديث : « إن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس » .

قال مرتضى : أغفله العراقي وأخرج أبو يعلى الخليلي في الإرشاد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه من أرضى الله بسخط المخلوقين كفاه مؤنة المخلوقين ومن أرضى المخلوقين بسخط الله سلط الله عليه المخلوقين وأخرج أبو نعيم في الحلية من حديث عائشة رضي الله عنها من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله .

بل رضا الناس غاية لا تنال فرضا الله أولي بالطلب ولذلك قال الشافعي ليونس ابن عبد الأعلى : والله ما أقول لك إلا نصحا إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل ، فانظر ماذا يصلحك فافعله .

ولذلك قيل :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

ونظر سهل إلى رجل من أصحابه فقال له : اعمل كذا وكذا لشيء أمره به ، فقال: يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس ، فالتفت إلى أصحابه وقال : لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون **بأحد وصفين** :

عبد تسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا خالقه ، وإن أحدا لا يقدر على أن يضره ولا ينفعه ، وعبد سقطت نفسه عن قلبه ، فلا يبالي بأي حال يرونه .

وقال الشافعي رحمه الله : ليس من أحد إلا وله محب ومبغض ، فإذا كان هكذا، فكن مع أهل طاعة الله .

وقيل للحسن : يا أبا سعيد إن قوما يحضرون مجلسك ليس بغيتهم إلا تتبع سقطات كلامك وتعنيتك بالسؤال فتبسم وقال للقائل : هون على نفسك ، فإني حدثت نفسي بسكنى الجنان ، ومجاورة الرحمن ، فطمعت وما حدثت نفسي بالسلامة من الناس ، لأني قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم لم يسلم منهم .

وقال موسى عليه السلام : يا رب احبس عني ألسنة الناس فقال يا موسى : هذا شيء لم أصطفه لنفسي ، فكيف أفعله بك .

وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزير: إن لم تطب نفسا بأني أجعلك علكا في أفواه الماضغين لم أكتبك عندي من المتواضعين .

فإذاً من حبس نفسه فى البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه ، فهو فى عناء حاضر فى الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

فإذاً لا تستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات بربه ذكرًا وفكرًا وعبادة وعلمًا، بحيث لو خالطه الناس لضاعت أوقاته وكثرت آفاته ولتشوشت عليه عباداته .

فهذه غوائل خفية فى اختيار العزلة ، ينبغى أن تتقى ، فإنها مهلكات فى صور منجيات .

الفائدة السابعة : التجارب: فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجارى أحوالهم. والعقل الغريزى ليس كافيا فى تفهم مصالح الدين والدنيا ، وإنما تفيدها التجربة والممارسة ولا خير فى عزلة من لم تحنكه التجارب .

فالصبى إذا اعتزل بقى عمرا جاهلا ، بل ينبغى أن يشتغل بالتعلم ويحصل له فى مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب ، ويكفيه ذلك ويحصل بقية التجارب بسماع الأحوال ولا يحتاج إلى المخالطة .

ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفات باطنه ، وذلك لا يقدر عليه فى الخلوة، فإن كل مجرب فى الخلاء يسر وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه ، وهذه الصفات مهلكات فى أنفسها يجب إماطتها وقهرها. ولا يكفى تسكينها بالتباعد عما يحركها .

فمثال القلب المشحون بهذه الخبائث مثال دمل ممتلئ بالصديد والمدة ، وقد لا يحس صاحبه بألمه ما لم يتحرك أو يمسه غيره . فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن معه من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ، ولم يشعر بالدمل في نفسه واعتقد فقده ، ولكن لو حركه محرك أو أصابه مشرط حجام لانفجر منه الصديد ، وفار فوران الشئ المختنق إذا حبس عن الاسترسال ، فكذلك القلب المشحون بالحقد ،

والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تنفجر منه خبائثه إذا حرك ، وعن هذا كان السالكون لطريق الآخرة ، الطالبون لتزكية القلوب يجربون أنفسهم، فمن كان يستشعر فى نفسه كبرا سعى فى إماطته حتى كان بعضهم يحمل قربة ماء على ظهره بين الناس، أو حزمة حطب على رأسه ، ويتردد فى الأسواق ليجرب نفسه بذلك فإن غوائل النفس ومكايد الشيطان خفية قل من يتفطن لها .

ولذلك حكى عن بعضهم أنه قال : أعدت صلاة ثلاثين سنة مع أنى كنت أصليها فى الصف الأول ، ولكن تخلفت يوما بعذر فما وجدت موضعا فى الصف الأول فوقفت فى الصف الثانى فوجدت نفسى تستشعر خجلة من نظر الناس إلى وقد سبقت إلى الصف الأول ، فعلمت أن جميع صلواتى التى كنت أصليها كانت مشوبة بالرياء ممزوجة بلذة نظر الناس إلى رؤيتهم إياى فى زمرة السابقين إلى الخير .

فالمخالطة لها فائدة ظاهرة عظيمة فى استخراج الخبائث واظهارها ولذلك قيل: السفر يسفر عن الأخلاق فإنه نوع من المخالطة الدائمة . وستأتى غوائل هذه المعانى ودقائقها فى ربع المهلكات ، فإن بالجهل بها يحبط العمل الكثير ، وبالعلم بها يزكو العمل القليل ، ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل ، إذ يستحيل إن يكون العلم بالصلاة ولايراد إلا للصلاة أفضل من الصلاة ، فإنا نعلم أن ما يراد لغيره فإن ذلك الغير أشرف منه .

وقد قضى الشرع بتفضيل العالم على العابد حتى قال ﷺ : « **فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى** »(٢١٨٢) .

فمعنى تفضيل العلم ، يرجع إلى **ثلاثة أوجه** :

أحدها : ما ذكرناه .

(٢١٨٢) حديث : قال ﷺ : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى »
قال العراقى : رواه الترمذى من حديث أبى أمامة بلفظ على أدناكم وفيه زيادة وقد تقدم فى كتاب العلم مفصلاً حديث رقم ٢٢ ص٤٧ .اهـ.

والثانى : عموم النفع لتعدى فائدته ، والعمل لا تتعدى فائدته .

والثالث : أن يراد به العلم بالله وصفاته وأفعاله، فذلك أفضل من كل عمل ، بل مقصود الأعمال صرف القلوب عن الخلق إلى الخالق ، لتنبعث بعد الانصراف إليه لمعرفته ومحبته ، فالعمل وعلم العمل مرادان لهذا العلم ، وهذا العلم غاية المريدين والعمل كالشرط له وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر : ١٠) .

فالكلم الطيب هو هذا العلم ، والعمل كالحمال الرافع له إلى مقصده ، فيكون المرفوع أفضل من الرافع .

وهذا كلام معترض لا يليق بهذا الكلام ، فلنرجع إلى المقصود فنقول : إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقا بالتفضيل نفيا وإثباتا خطأ ، بل ينبغي أن ينظر إلى الشخص وحاله ، وإلى الخليط وحاله وإلى الباعث على مخالطته ، وإلى الفائت بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة ويقاس الفائت بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل .

وكلام الشافعى رحمه الله هو فصل الخطاب ، إذ قال يا يونس : الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط ، فلذلك يجب الاعتدال فى المخالطة والعزلة ويختلف ذلك بالأحوال وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل .

هذا هو الحق الصراح وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر ، وإنما هو اخبار كل واحد على حالة خاصة هو فيها ، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره المخالف له فى الحال ، والفرق بين العالم والصوفى في ظاهر العلم يرجع إلى هذا وهو أن الصوفى لا يتكلم إلا عن حاله ، فلا جرم تختلف أجوبتهم فى المسائل ، والعالم هو الذى يدرك

الحق على ما هو عليه ، ولا ينظر إلى حال نفسه ، فيكشف الحق فيه وذلك مما لا يختلف فيه ، فإن الحق واحد أبدا ، والقاصر عن الحق كثير لا يحصى .

ولذلك سئل الصوفية عن الفقر ، فما من واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر وكل ذلك حق بالإضافة إلى حاله وليس بحق فى نفسه ، إذ الحق لا يكون إلا واحدا .

ولذلك قال أبو عبد الله الجلاد وقد سئل عن الفقر فقال : اضرب بكميك الحائط وقل ربى الله ، فهو الفقر .

وقال الجنيد : الفقير هو الذى لا يسأل أحدا ، ولا يعارض ، وإن عورض سكت .

وقال سهل بن عبد الله : الفقير الذى لا يسأل ولا يدخر .

وقال آخر : هو أن لا يكون لك فإن كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك .

وقال إبراهيم الخوّاص : هو ترك الشكوى واظهار أثر البلوى .

والمقصود أنه لو سئل منهم مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة قلما يتفق منها اثنان .

وذلك كله حق من وجه ، فإنه خبر كل واحد عن حاله وما غلب على قلبه ، ولذلك لا ترى اثنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قدما فى التصوّف ، أو يثنى عليه ، بل كل واحد منهم يدعى أنه الواصل إلى الحق والواقف عليه . لأن أكثر ترددهم على مقتضى الأحوال التى تعرض لقلوبهم ، فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ولا يلتفتون إلى غيرهم ؛ ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف .

ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم فى أدلة الزوال بالنظر فى الظل فقال بعضهم هو فى الصيف قدمان ، وحكى عن آخر أنه نصف قدم وآخر يرد عليه ، وأنه فى الشتاء سبعة أقدام .

وحكى عن آخر ، أنه خمسة أقدام ، وآخر يرد عليه فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم . فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذى رآه ببلده نفسه ، فصدق فى قوله وأخطأ فى تخطئته صاحبه ، إذ ظن أن العالم كله بلده أو هو مثل بلده .

كما أن الصوفى لا يحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه ، والعالم بالزوال هو الذى يعرف علة طول الظل وقصره وعلة اختلافه بالبلاد فيخبر بأحكام مختلفة في بلاد مختلفة ، ويقول فى بعضها : لا يبقى ظل ، وفى بعضها يطول وفى بعضها يقصر. فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة العزلة والمخالطة .

فإن قلت : فمن آثر العزلة ورآها أفضل له وأسلم فما آدابه فى العزلة فنقول : إنما يطول النظر فى آداب المخالطة، وقد ذكرناها فى كتاب آداب الصحبة .

وأما آداب العزلة ، فلا تطول ، فينبغى للمعتزل أن ينوى بعزلته كف شر نفسه عن الناس أولاً ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثانيا ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثا ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعا .

فهذه آداب نيته ، ثم ليكن فى خلوته مواظبا على العلم ، والعمل والذكر والفكر ليجتنى ثمرة العزلة وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته ، فيشوش أكثر وقته وليكف عن السؤال عن أخبارهم ، وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، فإن كل ذلك ينغرس فى القلب حتى ينبعث فى أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب .

فوقوع الأخبار فى السمع كوقوع البذر فى الأرض ، فلابد أن ينبت وتتفرع عروقه وأغصانه ، ويتداعى بعضها إلى بعض ، وأحد مهمات المعتزل قطع الوساوس الصارفة

عن ذكر الله ، والأخبار ينابيع الوساوس وأصولها ، وليقنع باليسير من المعيشة وإلا اضطره التوسع إلى الناس واحتاج إلى مخالطتهم ، وليكن صبورا على ما يلقاه من أذى الجيران ، وليسد سمعه عن الاصغاء إلى ما يقال فيه من ثناء عليه بالعزلة أو قدح فيه بترك الخلطة .

فإن كل ذلك يؤثر فى القلب ، ولو مدة يسيرة وحال اشتغال القلب به لابد أن يكون واقفا عن سيره إلى طريق الآخرة فإن السير إما بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب وإما بالفكر فى جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأرضه وإما بالتأمل فى دقائق الأعمال ، ومفسدات القلوب وطلب طرق التحصن منها .

وكل ذلك يستدعى الفراغ والإصغاء إلى جميع ذلك مما يشوش القلب فى الحال .

وقد يتجدد ذكره فى دوام الذكر من حيث لا ينتظر وليكن له أهل صالحة أو جليس صالح ، لتستريح نفسه إليه فى اليوم ساعة من كد المواظبة ففيه عون على بقية الساعات ، ولا يتم له الصبر فى العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا . وما الناس منهمكون فيه ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل بأن لا يقدر لنفسه عمرا طويلا ، بل يصبح على أنه لا يمسى ويمسى على أنه لا يصبح فيسهل عليه صبر يوم ، ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لو قدر تراخى الأجل .

وليكن كثير الذكر للموت ، ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة وليتحقق أن من لم يحصل فى قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به فلا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت .

وإن من أنس بذكر الله ومعرفته فلا يزيل الموت أنسه . إذ لا يهدم الموت محل الأنس والمعرفة ، بل يبقى حيا بمعرفته وأنسه ، فرحا بفضل الله عليه ورحمته كما قال الله تعالى فى الشهداء : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (آل عمران: ١٦٩ ، ١٧٠) .

وكل متجرد لله فى جهاد نفسه فهو شهيد مهما أدركه الموت مقبلا غير مدبر.

«فالمجاهد من جاهد نفسه وهواه» [٢١٨٣] كما صرح به رسول الله ﷺ .

والجهاد الأكبر جهاد النفس كما قال الصحابة ﷺ : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، يعنون جهاد النفس .

تم كتاب (العزلة) ويتلوه كتاب (آداب السفر) والحمد لله وحده

★★★

(٢١٨٣) حديث : قال ﷺ : « المجاهد » ليس هو من جاهد الكفار بسيفه وسنانه فقط بل هو أيضا « من جاهد بنفسه وهواه » بأن أماته بسيف تأديبه **قال العراقى** : رواه الحاكم من حديث فضالة بن عبيد وصححه دون قوله وهواه وقد تقدم فى الباب الثالث من آداب الصحبة .اهـ.

قال مرتضى : وكذلك رواه أحمد والترمذى وابن حبان والطبرانى والقضاعى كلهم من حديث عمرو بن مالك الحنفى عن فضالة ولفظهم جميعا المجاهد من جاهد نفسه وفى رواية بزيادة فى ذات الله وفى الباب عن جابر بن عقبة بن عامر .

كتاب آداب السفر

وهو الكتاب السابع من ربع العادات

وفيه بابان :

(الباب الأول) : فى الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفى نية السفر وفائدته .

(الباب الثانى) : فيما لابد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات .



بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب آداب السفر

وهو الكتاب السابع من ربع العادات من كتب إحياء علوم الدين

الحمد لله ، الذى فتح بصائر أوليائه بالحكم والعبر ، واستخلص هممهم لمشاهدة عجائب صنعه فى الحضر والسفر. فأصبحوا راضين بمجارى القدر، منزهين قلوبهم عن التلفت إلى منتزهات البصر إلا على سبيل الاعتبار بما يسنح فى مسارح النظر ومجارى الفكر ، فاستوى عندهم البر والبحر والسهل والوعر والبدو والحضر والصلاة على محمد سيد البشر ، وعلى آله وصحبه المقتفين لآثاره فى الأخلاق والسير ، وسلم كثيرا .

أما بعد :

فإن السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه .

والسفر سفران :

سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والفلوات .

وسفر بسير القلب عن أسفل السافلين إلى ملكوت السموات .

وأشرف السفرين السفر الباطن ، فإن الواقف على الحالة التى نشأ عليها عقيب الولادة الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الآباء والأجداد لازم درجة القصور ، وقانع

بمرتبة النقص ، ومستبدل بمتسع فضاء جنة عرضها السموات والأرض ظلمة السجن وضيق الحبس ، ولقد صدق القائل:

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

إلا أن هذا السفر لما كان مقتحمه في خطب خطير لم يستغن فيه عن دليل وخفير، فاقتضى غموض السبيل ، وفقد الخفير والدليل وقناعة السالكين عن الحظ الجزيل بالنصيب النازل القليل اندراس مسالكه ، فانقطع فيه الرفاق وخلا عن الطائفين منتزهات الأنفس والملكوت والآفاق ، وإليه دعا الله سبحانه بقوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ (فصلت : ٥٣) .

وبقوله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٠ ، ٢١) .

وعلى القعود عن هذا السفر وقع الإنكار بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨) .

وبقوله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف : ١٠٥) .

فمن يسر له هذا السفر لم يزل في سيره متنزها في جنة عرضها السموات والأرض ، وهو ساكن بالبدن مستقر في الوطن وهو السفر الذي لا تضيق فيه المناهل والموارد ولا يضر فيه التزاحم والتوارد ، بل تزيد بكثرة المسافرين غنائمه وتتضاعف ثمراته وفوائده ، فغنائمه دائمة غير ممنوعة وثمراته متزايدة غير مقطوعة إلا إذا بدا للمسافر فترة في سفره ووقفة في حركته . فـ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١١) ، وإذا ﴿ زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (الصف : ٥) . وما الله بظلام .

للعبيد ولكنهم يظلمون أنفسهم ، ومن لم يؤهل للجولان فى هذا الميدان والتطواف فى متنزهات هذا البستان ربما سافر بظاهر بدنه فى مدة مديدة فراسخ معدودة، مغتنما بها تجارة للدنيا أو ذخيرة للآخرة فإن كان مطلبه العلم والدين ، أو الكفاية للاستعانة على الدين كان من سالكى سبيل الآخرة ، وكان له فى سفره شروط وآداب إن أهملها كان من عمال الدنيا وأتباع الشيطان ، وإن واظب عليها لم يخل سفره عن فوائد تلحقه بعمال الآخرة .

ونحن نذكر آدابه وشروطه فى **بابين** إن شاء الله تعالى .

الباب الأول : فى الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفى نية السفر وفائدته **وفيه فصلان .**

الباب الثانى : فيما لابد للمسافر من تعلمه من رخص السفر وأدلة القبلة والأوقات.



الباب الأول

فى الآداب من أول النهوض إلى آخر الرجوع وفى نية السفر وفائدته وفيه فصلان

الفصل الأول

فى فوائد السفر وفضله ونيتـه

اعلم أن السفر نوع حركة ومخالطة ، وفيه فوائد ، وله آفات كما ذكرناه فى كتاب الصحبة والعـزلة ، والفوائد الباعثة على السفر لا تخـلو من هرب أو طلب فإن المسافر إما أن يكون له مزعج عن مقامه ، ولولاه لما كان له مـقصد يسافر إليه ، وإما أن يكون له مقصد ومطلب .

والمهـروب عنـه : إما أمـر له نكاية فى الأمور الدنيوية كـالطاعون والوباء ، إذا ظهر ببلد أو خوف سببه فتنة أو خصومـة أو غلاء سعر ، وهو إما عام كما ذكرناه . أو خاص كـمن يقصد بأذية فى بلدة فـيهرب منهـا ، وإما أمر له نكـاية فى الدين ، كمن ابتلى فى بلده بجاه ومال واتساع أسباب تصده عن التجرد لله ، فيؤثر الغربة والخمول ، ويجتنـب السعة والجـاه ، أو كمن يدعى إلى بدعـة قهرا ، أو إلى ولايـة عمل لا تحل مباشرته فيطلب الفرار منه .

وأما المطلوب فهو إما دنيوى كالمال والجاه ، أو دينى ، والدينى إما علم ، وإما عمل .

والعلم إما علم من العلوم الدينية ، وإما علم بأخلاق نفسه وصفاته على سبيل التجربة، وإما علم بآيات الأرض وعجائبها كسفر ذى القرنين وطوافه فى نواحى الأرض .

والعمل إما عبادة ، وإما زيارة ، والعبادة هو الحج والعمرة والجهاد ، والزيارة أيضا من القربات وقد يقصد بها مكان كمكة والمدينة وبيت المقدس والثغور ، فإن الرباط بها قربة ، وقد يقصد بها الأولياء والعلماء ، وهم إما موتى ، فتزار قبورهم وإما أحياء فيتبرك بمشاهدتهم ويستفاد من النظر إلى أحوالهم قوّة الرغبة فى الاقتداء بهم .

فهذه هى أقسام الأسفار ويخرج من هذه القسمة أقسام :

القسم الأول : السفر فى طلب العلم :

وهو إما واجب وإما نفل ، وذلك بحسب كون العلم واجبا أو نفلا ، وذلك العلم إما علم بأمور دينه أو بأخلاقه فى نفسه ، أو بآيات الله فى أرضه .

وقد قال ﷺ : « **من خرج من بيته فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع** »(٢١٨٤) .

وفى خبر آخر : « **من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة**»(٢١٨٥) .

(٢١٨٤) حديث : قال ﷺ : « من خرج من بيته فى طلب العلم » الشرعى النافع الذي أريد به وجه الله « فهو فى سبيل الله » أى حكمه حكم من هو فى الجهاد « حتى يرجع » **قال العراقى :** رواه الترمذى من حديث أنس وقال حسن غريب .اهـ.

قال مرتضى : وكذلك رواه أبو يعلى والطبرانى والضياء فى المختارة وفيه خالد بن يزيد اللؤلؤى قال العقيلى لا يتابع على كثير من حديثه وذكر له هذا الخبر قال الذهبى وهو مقارب الحديث وفى رواية لأبى نعيم فى الحلية بلفظ من طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع.

(٢١٨٥) حديث : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة » **قال العراقى :** رواه مسلم وتقدم فى العلم حديث رقم٣٢ ص٥٨ .اهـ.

قال مرتضى : رواه الترمذى وقال حسن من حديث أبى هريرة ويروى من سلك طريقا=

وكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام فى طلب الحديث الواحد.

وقال الشعبى : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن فى كلمة تدله على هدى ، أو ترده عن ردى ما كان سفره ضائعا .

« ورحل جابر بن عبد الله من المدينة ، إلى مصر مع عشرة من الصحابة فساروا شهرا فى حديث بلغهم عن عبد الله بن أنيس الأنصارى يحدث به عن رسول الله ﷺ حتى سمعوه » (٢١٨٦) .

= يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع الحديث بطوله رواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والبيهقى من حديث أبي الدرداء وقد تقدم ذلك فى كتاب العلم.

(٢١٨٦) حديث : « رحل جابر بن عبد الله من المدينة إلى مسيرة شهر فى حديث بلغه عن عبد الله ابن أنيس » الأنصارى يحدث عن رسول الله ﷺ حتى سمعوه ، قال ابن إسحاق وهو من قضاعة حليف لبنى سلمة وهو أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى خالد بن نبيح الغزى فقتله وهو الذى سأل النبى ﷺ عن ليلة القدر وهو الذى رحل إليه جابر بن عبد الله فسمع منه حديث القصاص وهذا الذى ساقه المصنف هو بعينه لفظ القوت **وقال العراقى** : رواه الخطيب فى كتاب الرحلة بإسناد حسن ولم يسم الصحابى ، وقال البخارى فى صحيحه رحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث واحد ورواه أحمد إلا أنه قال إلى الشام وإسناده حسن ولأحمد أن أبا أيوب ركب إلى عقبة بن عامر إلى مصر فى حديث وله أن عقبة بن عامر أتى سلمة بن مخلد وهو أول أمير مصر فى حديث آخر وكلاهما منقطع . اهـ.

قال مرتضى : ويقال هو عبد الله بن أبى أنيسة قال الوليد بن مسلم حدثنا داود بن عبد الرحمن المكى عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر رضي الله عنه قال سمعت حديثا فى القصاص لم يبق أحد يحفظه إلا رجل بمصر يقال له عبد الله بن أبى أنيسة فساقه ولكن الصحيح ما قاله البخارى وقرأت فى تاريخ مصر لمحمد بن الربيع الجيزى ما نصه قدم جابر ابن عبد الله الأنصارى مصر بعد الفتح على عقبة بن عامر الجهنى ويقال على عبد الله بن أنيس الجهنى وكان قدومه فى أيام مسلمة بن مخلد ولأهل مصر عنه عن النبى ﷺ نحو من عشرة أحاديث ثم ساقها ثم قال ومما يبين قدوم جابر مصر ما حدثناه أحمد بن عبد الرحمن بن وهب قال حدثنا عمر حدثنى محمد بن مسلم الطائفى عن القاسم بن عبد الواحد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال كان عبد الله=

وكل مذكـور فى العلم محـصل له من زمان الصـحابة إلى زماننا هـذا لم يحصل العلم إلا بالسفر ، وسافـر لأجله وأما علمه بنفسه وأخلاقه ، فـذلك أيضا مهم ، فإن طريق الآخرة لا يمكن سلوكـها إلا بتحسين الخلق وتهذيبـه ، ومن لا يطلع على أسرار باطنه وخبائث صفاته لا يقدر على تطهيـر القلب منها ، وإنما السفر هو الذى يسفر عن أخلاق الرجال وبه يخـرج الله الخبء فى السموات والأرض ، وإنما سمى السفـر سفرا لأنه يسفر عن الأخلاق .

ولذلك قال عـمر رضي الله عنه للذى زكى عنده بعض الشهود : هل صـحبته في السـفر الذى يستدل به على مكارم أخلاقه ؟ فقال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه .

وكان بشر يقول يا معشر القراء : سيحوا تطيبوا ، فإن الماء إذا ساح طاب ، وإذا طال مقامه فى موضع تغير .

وبالجـملة فإن النفس فى الوطن مع مـواتاة الأسبـاب لا تظهـر خبائـث أخلاقـها لاستئناسها بما يوافق طبـعها من المألوفات المعهودة ، فإذا حملت وعـثاء السفر وصرفت عن مألوفـاتها المعتادة وامـتحنت بمشاق الغـربة ؛ انكشفت غوائلهـا ووقع الوقوف على عيوبها ، فيمكن الاشتغال بعلاجها .

وقد ذكـرنا فى كتاب العزلة فـوائد المخالطة ، والسفـر مخالطة مع زيادة اشتـغال واحتمال مشاق .

= ابن أنيس الجهنى وكان عداده فى الأنصار يحـدث عن رسول الله ﷺ حديثا فى القصاص قال جابر فخرجت إلى السوق فاشتريت بعيرا ثم شددت عليه رحلا ثم سرت إليه شهرا فلما قدمت مـصر سألت عنه حـتى وقفت على بابه فخـرج إلى غليم أسود فـقال من أنت قلت جابر بن عبد الله فـدخل عليه فذكر ذلك له فقال قل له أصـاحب رسول الله ﷺ فخرج الغلام فقال ذلك لى فقلت نعم فخرج إلى فالتزمني والتزمته وذكر الحديث .

وأما آيات الله فى أرضه ففى مشاهدتها فوائد للمستبصر ، ففيها قطع متجاورات، وفيها الجبال والبرارى والبحار ، وأنواع الحيوان والنبات ، وما من شىء منها إلا وهو شاهد لله بالوحدانية ، ومسبح له بلسان ذلق لا يدركه إلا من ألقى السمع وهو شهيد .

وأما الجاحدون والغافلون والمغترون بلامع السراب من زهرة الدنيا فإنهم لا يبصرون ولا يسمعون لأنهم عن السمع معزولون ، وعن آيات ربهم محجوبون ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧) . وما أريد بالسمع السمع الظاهر ، فإن الذين أريدوا به ما كانوا معزولين عنه وإنما أريد به السمع الباطن ولا يدرك بالسمع الظاهر إلا الأصوات ، ويشارك الإنسان فيه سائر الحيوانات .

فأما السمع الباطن فيدرك به لسان الحال الذى هو نطق وراء نطق المقال يشبه قول القائل حكاية لكلام الوتد والحائط ، قال الجدار للوتد : لم تشقنى ؟ فقال : سل من يدقنى ولم يتركنى ورائى الحجر الذى ورائى.

وما من ذرة فى السموات والأرض إلا ولها أنواع شاهدات لله تعالى بالوحدانية هى توحيدها . وأنواع شاهدات لصانعها بالتقدس وهى تسبيحها ، ولكن لا يفقهون تسبيحها لأنهم لم يسافروا من مضيق سمع الظاهر إلى فضاء سمع الباطن ، ومن ركاكة لسان المقال إلى فصاحة لسان الحال .

ولو قدر كل عاجز على مثل هذا السير لما كان سليمان عليه السلام مختصا بفهم منطق الطير ولما كان موسى عليه السلام مختصا بسماع كلام الله تعالى الذى يجب تقديسه عن مشابهة الحروف والأصوات ، ومن يسافر ليستقرئ هذه الشهادات من الأسطر المكتوبة بالخطوط الإلهية على صفحات الجمادات لم يطل سفره بالبدن ، بل يستقر فى موضع ويفرغ قلبه للتمتع بسماع نغمات التسبيحات من آحاد الذرات فما له وللتردد فى الفلوات ، وله غنية فى ملكوت السموات ، فالشمس والقمر والنجوم بأمره

مسخرات وهى إلى أبصار ذوى البصائر مسافرات فى الشهر والسنة مرات ، بل هى دائبة فى الحركة على توالى الأوقات .

فمن الغرائب أن يدأب فى الطواف بآحاد المساجد من أمرت الكعبة أن تطوف به. ومن الغرائب أن يطوف فى أكناف الأرض من تطوف به أقطار السماء ، ثم ما دام المسافر مفتقرًا إلى أن يبصر عالم الملك والشهادة بالبصر الظاهر فهو بعد فى المنزل الأول من منازل السائرين إلى الله والمسافرين إلى حضرته ، وكأنه معتكف على باب الوطن لم يفض به المسير إلى متسع الفضاء ، ولا سبب لطول المقام فى هذا المنزل إلا الجبن والقصور .

ولذلك قال بعض أرباب القلوب : إن الناس ليقولون افتحوا أعينكم حتى تبصروا، وأنا أقول : غمضوا أعينكم حتى تبصروا ، وكل واحد من القولين حق إلا أن الأول خبر عن المنزل الأول القريب من الوطن ، والثانى خبر عما بعده من المنازل البعيدة عن الوطن التى لا يطؤها إلا مخاطر بنفسه ، والمجاوز إليها ربما يتيه فيها سنين. وربما يأخذ التوفيق بيده ، فيرشده إلى سواء السبيل ، والهالكون فى التيه هم الأكثرون من ركاب هذه الطريق ، ولكن السائحون بنور التوفيق فازوا بالنعيم والملك المقيم ، وهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، واعتبر هذا الملك بملك الدنيا ، فإنه يقل بالإضافة إلى أكثر الخلق طلابه ، ومهما عظم المطلوب قل المساعد ، ثم الذى يهلك أكثر من الذى يملك ولا يتصدى لصلب الملك العاجز الجبان لعظم الخطر وطول التعب.

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

وما أودع الله العز والملك فى الدين والدنيا إلا فى حيز الخطر . وقد يسمى الجبان الجبن والقصور باسم الحزم والحذر كما قيل:

ترى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

فهذا حكم السفر الظاهر إذا أريد به السفر الباطن بمطالعة آيات الله فى الأرض ، فلنرجع إلى الغرض الذى كنا بصدده ولنبين .

القسم الثانى : وهو أن يسافر لأجل العبادة إما لحج أو جهاد :

وقد ذكرنا فضل ذلك وآدابه ، وأعماله الظاهرة والباطنة فى كتاب أسرار الحج. ويدخل فى جملته زيارة قبور الأنبياء عليهم السلام ، وزيارة قبور الصحابة والتابعين ، وسائر العلماء والأولياء ، وكل من يتبرك بمشاهدته فى حياته يتبرك بزيارته بعد وفاته . ويجوز شد الرحال لهذا الغرض .

ولا يمنع من هذا قوله ﷺ : « **لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى** » (٢١٨٧) .

لأن ذلك فى المساجد فإنها متماثلة بعد هذه المساجد ، وإلا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء فى أصل الفضل ، وإن كان يتفاوت فى الدرجات تفاوتا عظيما بحسب اختلاف درجاتهم عند الله .

وبالجملة زيارة الأحياء أولى من زيارة الأموات ، والفائدة من زيارة الأحياء طلب بركة الدعاء وبركة النظر إليهم ، فإن النظر إلى وجوه العلماء والصلحاء عبادة ، وفيه أيضا حركة للرغبة فى الاقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم وآدابهم .

(٢١٨٧) حديث : قال ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » وفى رواية بتقديم المسجد الحرام **قال العراقى : تقدم فى الحج حديث** رقم ٧٨٩ ص ٨١٥ .اهـ.

قال مرتضى : ورواه أحمد والشيخان وأبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة ورواه أيضا سوى أبى داود من حديث أبى سعيد ورواه ابن ماجه وحده من حديث ابن عمر وقد تقدم فى أسرار الحج .

هذا سوى ما ينتظر من الفوائد العلمية المستفادة من أنفاسهم وأفعالهم ، كيف ومجرد زيارة الإخوان فى الله فيه فضل كما ذكرناه في كتاب الصحبة .

وفى التوراة : سر أربعة أميال زر أخا فى الله .

وأما البقاع فلا معنى لزيارتها سوى المساجد الثلاثة وسوى الثغور للرباط بها .

فالحديث ظاهر فى أنه : لا تشد الرحال لطلب بركة البقاع إلا إلى المساجد الثلاثة، وقد ذكرنا فضائل الحرمين في كتاب الحج وبيت المقدس أيضا له فضل كبير .

خرج ابن عمر من المدينة قاصدا بيت المقدس حتى صلى فيه الصلوات الخمس، ثم كر راجعا من الغد إلى المدينة .

وقد سأل سليمان عليه السلام ربه عز وجل أن من قصد هذا المسجد لا يعنيه إلا الصلاة فيه أن لا تصرف نظرك عنه ما دام مقيما فيه حتى يخرج منه ، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فأعطاه الله ذلك .

القسم الثالث : أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش للدين :

وذلك أيضا حسن فالفرار مما لا يطاق من سنن الأنبياء والمرسلين ومما يجب الهرب منه الولاية والجاه وكثرة العلائق والأسباب ، فإن كل ذلك يشوش فراغ القلب ، والدين لا يتم إلا بقلب فارغ عن غير الله ، فإن لم يتم فراغه فبقدر فراغه يتصور أن يشتغل بالدين ولا يتصور فراغ القلب فى الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية ولكن يتصور تخفيفها وتثقيلها ، وقد نجا المخفون ، وهلك المثقلون والحمد لله الذى لم يعلق النجاة بالفراغ المطلق عن جميع الأوزار والأعباء . بل قبل المخف بفضله ، وشمله بسعة رحمته «**والمخف هو الذى ليست الدنيا أكبر همه**» [٢١٨٨] .

(٢١٨٨) حديث : « المخف هو الذى ليست الدنيا أكبر همه » .

قال مرتضى : أغفله العراقى ورروي هناد والترمذى من حديث أنس والطبرانى من حديث=

وذلك لا يتيسر فى الوطن لمن اتسع جاهه وكثرت علائقه فلا يتم مقصوده إلا بالغربة والخمول وقطع العلائق التى لابد عنها حتى يروض نفسه مدة مديدة ، ثم ربما يمده الله بمعونته ، فينعم عليه بما يقوى به يقينه ، ويطمئن به قلبه فيستوى عنده الحضر والسفر ، ويتقارب عنده وجود الأسباب والعلائق وعدمها ، فلا يصده شيء منها عما هو بصدده من ذكر الله وذلك مما يعز وجوده جدا ، بل الغالب على القلوب الضعف والقصور عن الاتساع للخلق والخالق ، وإنما يسعد بهذه القوة الأنبياء والأولياء والوصول إليها بالكسب شديد ، وإن كان للاجتهاد والكسب فيها مدخل أيضا .

ومثال تفاوت القوة الباطنة فيه كتفاوت القوة الظاهرة فى الأعضاء . فرب رجل قوى ذى مرة سوى شديد الأعصاب محكم البنية يستقل بحمل ما وزنه ألف رطل مثلا ، فلو أراد الضعيف المريض أن ينال رتبته بممارسة الحمل والتدريج فيه قليلا قليلا لم يقدر عليه ، ولكن الممارسة والجهد يزيد فى قوته زيادة ما ، وإن كان ذلك لا تبلغه درجته فلا ينبغى أن يترك الجهد عند اليأس عن الرتبة العليا . فإن ذلك غاية الجهل ونهاية الضلال .

وقد كان من عادة السلف ﷺ مفارقة الوطن خيفة من الفتن .

وقال سفيان الثورى : هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخامل ، فكيف على المشتهرين ، هذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد كلما عرف فى موضع تحول إلى غيره .

ابن عباس من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله واتته الدنيا وهى راغمة ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له وأخرج الطبرانى من حديث أنس خرج رسول الله ﷺ يوما وهو آخذ بيد أبى ذر فقال يا أبا ذر أعلمت أن بين أيدينا عقبة كؤدا ولا يصعدها إلا المخفون قال رجل يا رسول الله أمن المخفين أنا أم من المثقلين قال عندك طعام اليوم قال نعم قال وطعام غد قال نعم قال وطعام بعد غد قال لا قال لو كان عندك طعام ثلاث كنت من المثقلين.

وقال أبو نعيم : رأيت سفيان الثورى وقد علق قلته بيده ، ووضع جرابه على ظهره ، فقلت : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : بلغني عن قرية فيها رخص أريد أن أقيم بها ، فقلت له وتفعل هذا ؟ قال : نعم، إذا بلغك أن قرية فيها رخص فأقم بها، فإنه أسلم لدينك ، وأقل لهمك ، وهذا هرب من غلاء السعر .

وكان سرى السقطى يقول للصوفية : إذا خرج الشتاء فقد خرج أذار وأورقت الأشجار ، وطاب الانتشار فانتشروا .

وقد كان الخواص لا يقيم ببلد أكثر من أربعين يوما وكان من المتوكلين ويري الإقامة اعتمادا على الأسباب قادحا فى التوكل .

وسيأتي أسرار الاعتماد على الأسباب فى كتاب التوكل إن شاء الله تعالى .

القسم الرابع : السفر هربا مما يقدح فى البدن :

كالطاعون أو فى المال ، كغلاء السعر أو ما يجرى مجراه ، ولا حرج فى ذلك ، بل ربما يجب الفرار فى بعض المواضع ، وربما يستحب فى بعض بحسب وجوب ما يترتب عليه من الفوائد واستحبابه ، ولكن يستثنى منه الطاعون ، فلا ينبغى أن يفر منه لورود النهى فيه .

قال أسامة بن زيد ﵁ : قال رسول الله ﷺ : « **إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم ، ثم بقى بعد فى الأرض ، فيذهب المرة ويأتى الأخرى ، فمن سمع به فى أرض فلا يقدمن عليه ، ومن وقع بأرض وهو بها فلا يخرجنه الفرار منه** » (٢١٨٩) .

(٢١٨٩) حديث : قال أسامة بن زيد ﵁ : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا الوجع أو السقم ، رجز» أى عذاب « عذب به بعض الأمم قبلكم » وهم قوم فرعون من بنى إسرائيل أمرهم الله أن يدخلوا الباب سجدا فخالفوا فارسل الله عليهم ذلك فمات منهم فى ساعة سبعون ألفا وقد ورد التصريح بأنهم من بنى إسرائيل فى هذا الخبر بعينه كما سيأتى « ثم بقى بعد فى الأرض فيذهب المرة ويأتي الأخرى فمن سمع به فى أرض فلا يقدمن عليه ومن وقع

وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ : « إن فناء أمتى بالطعن والطاعون ، فقلت : هذا الطعن قد عرفناه فما الطاعون؟ قال : غدة كغدة البعير تأخذهم فى مراقهم المسلم الميت منه شهيد والمقيم عليه المحتسب كالمرابط فى سبيل الله ، والفار منه ، كالفار من الزحف » (٢١٩٠) .

= بأرض وهو بها فلا يخرجنه الفرار منه » قال الخطابى أحد الأمرين تأديب وتعليم والآخر تفويض وتسليم وقال التوربشتى الله شرع لنا التوقى من المحذور وقد صح أن النبى ﷺ لما بلغ الحجر منع أصحابه من دخوله وأما نهيه عن الخروج فلأنه إذا خرج الأصحاء ضاعت المرضى من متعهد والموتى من التجهيز والصلاة عليهم انتهى **قال العراقى :** وهو متفق عليه واللفظ لمسلم انتهى .

قال مرتضى: ورواه كذلك الترمذى والنسائى وفى لفظ لهما الطاعون رجز أو عذاب أرسل على طائفة من بنى إسرائيل فإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارا منه وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تهبطوا عليها وقوله أو عذاب هكذا هو بالشك ووقع بالجزم عند ابن خزيمة من حديث عامر بن سعد بلفظ إنه رجس سلط على طائفة من بنى إسرائيل .

(٢١٩٠) حديث: قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ : « إن فناء أمتى بالطعن والطاعون فقلت هذا الطعن قد عرفناه » وهو أن يطعن بعضهم فى الحرب بالرماح « فما الطاعون؟ قال: غدة كغدة البعير » قال الزمخشرى فى الفائق الغدة داء يأخذ البعير فترم نكفتاه له فيأخذه شبه الموت وفى أمثالهم أغدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية قاله عامر بن الطفيل عند دعاء النبى ﷺ «تأخذهم » أى الأمة « فى مراقهم » جمع مرق وهو أسفل البطن مما رق ولان «المسلم الميت منه شهيد والمقيم عليه المحتسب » وجه الله تعالى أى طالب الثواب على صبره على خوفه منه وشدته « كالمرابط فى سبيل الله » أى له مثل ثواب الشهيد « والفار منه كالفار من الزحف » والفرار من الزحف حين يزحف العدو على المسلمين من غير عذر كبيرة والفرار من الطاعون وزره مثل وزر ذلك **قال العراقى :** رواه أحمد وابن عبد البر في التمهيد بإسناد جيد .اهـ.

قال مرتضى : حديث عائشة روى بألفاظ مختلفة فروى أحمد والبخارى بلفظ الطاعون كان عذابا بعثه الله على من يشاء وإن الله جعله رحمة للمؤمنين فليس من أحد يقع الطاعون فيمكث فى بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد قاله لها حين سألته عن الطاعون ما هو وروى أحمد أيضا بسند فيه ثقات الطاعون غدة كغدة البعير المقيم بها كالشهيد والفار منه كالفار من الزحف وروى الطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى فوائد أبى بكر بن خلاد بسند حسن الطاعون شهادة لأمتى ووخز أعدائكم من الجن كغدة الإبل تخرج فى الآباط والمراق من مات فيه مات شهيدا ومن أقام به كان كالمرابط فى سبيل الله ومن فر منه كان كالفار من الزحف وأخرج أحمد والطبرانى فى=

وعن مكحول عن أم أيمن قالت : « أوصى رسول الله ﷺ بعض أصحابه لا تشرك بالله شيئا ، وإن عذبت أو خوّفت ، وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من كل شيء هو لك فاخرج منه ، ولا تترك الصلاة عمدا ، فإن من ترك الصلاة عمدا فقد برئت ذمة الله منه ، وإياك والخمر ، فإنها مفتاح كل شر ، وإياك والمعصية فإنها تسخط الله ولا تفر من الزحف وإن أصاب الناس موتان وأنت فيهم فاثبت فيهم ، أنفق من طولك على أهل بيتك ولا ترفع عصاك عنهم ، أخفهم بالله» (٢١٩١) .

= الكبير من حديث أبي موسى وفي الأوسط من حديث ابن عمر فناء أمتي بالطعن والطاعون وخز أعدائكم من الجن وفي كل شهادة .

(٢١٩١) حديث : قال مكحول ﵀ : قالت أم أيمن بركة حاضنة رسول الله ﷺ وهي والدة أسامة ابن زيد ماتت في خلافة عثمان ﵁ : « أوصى رسول الله ﷺ بعض أهله » وفي نسخة بعض أصحابه « لا تشرك بالله شيئا وإن حرقت بالنار » وفي نسخة وإن عذبت أو خوّفت «أطع والديك وأن أمراك أن تخرج عن شيء هو لك فاخرج لا تترك الصلاة عمدا فإن من ترك الصلاة عمدا فقد برئت ذمة الله منه إياك والخمر » لا تشربه « فإنه مفتاح كل شر إياك والمعصية فإنها تسخط الله » أي تغضبه « ولا تفر من الزحف » أي عند زحف المشركين بالمسلمين « وإن أصاب الناس موتان » بالضم الموت الكثير الذريع « وأنت فيهم فاثبت فيهم» أي لا تنتقل عن موضعك فارا « أنفق من طولك » أي طاقتك وقدرتك وما طالت به يدك «على أهل بيتك ممن عليك نفقته ولا ترفع عصاك عنهم » لأجل التأديب «أخفهم بالله» **قال العراقي** : رواه البيهقي وقال فيه إرسال . اهـ.

قال مرتضى : ومكحول كثير الإرسال مشهور بذلك ورواه كذلك ابن عساكر في التاريخ وقد رواه ابن ماجه والبيهقي من حديث أبي الدرداء بلفظ لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت وحرقت ولا تترك صلاة مكتوبة متعمدا فمن تركها متعمدا فقد برئت منه الذمة ولا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر وعند الطبراني من حديث أميمة مولاة رسول الله ﷺ بلفظ لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت وحرقت بالنار ولا تعصين والديك وإن أمراك أن تخلي من أهلك ودنياك فتخله ولا تشربن خمرا فإنها رأس كل شر ولا تتركن صلاة متعمدا فمن فعل ذلك برئت منه ذمة الله وذمة رسوله ولا تفرن يوم الزحف فمن فعل ذلك فقد باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ولا تزدادن في تخوم أرضك فمن فعل ذلك يأتي به على رقبته يوم القيامة من مقدار سبع أرضين وأنفق على أهلك من طولك ولا ترفع عصاك عنهم واخفهم في الله عز وجل وأميمة قيل هو اسم أم أيمن الحبشية وعند أحمد والطبراني وأبي نعيم في الحلية من حديث معاذ بلفظ لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت وحرقت ولا تعقن=

فهذه الأحاديث تدل على أن الفرار من الطاعون منهى عنه ، وكذلك القدوم عليه وسيأتى شرح ذلك فى كتاب التوكل .

فهذه أقسام الأسفار .

وقد خرج منه أن السفر ينقسم إلى : مذموم وإلى محمود وإلى مباح ، والمذموم ينقسم إلى حرام كإباق العبد وسفر العاق ، وإلى مكروه كالخروج من بلد الطاعون ، والمحمود ينقسم إلى واجب كالحج وطلب العلم الذى هو فريضة على كل مسلم ، وإلى مندوب إليه كزيارة العلماء وزيارة مشاهدهم .

= والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله ولا تشربن خمرا فإنه رأس كل فاحشة وإياك والمعصية فإن المعصية تحل سخط الله وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس وإذا أصاب الناس موت وأنت فيهم فاثبت وانفق على عيالك من طولك ولا ترفع عنهم عصاك أدبا وأخفهم فى الله وعند الطبرانى من حديث أبى الدرداء بلفظ لا تشرك بالله شيئا وإن عذبت وحرقت وأطع والديك وإن أمراك أن تخرج من كل شىء حولك فاخرج منه ولا تترك صلاة مكتوبة عمدا فإنه من ترك الصلاة عمدا فقد برئت منه ذمة الله إياك والخمر فإنها مفتاح كل شر وإياك والمعصية فإنها موجبة سخط الله لا تغلل ولا تفر يوم الزحف وإن هلكت وفر أصحابك وإن أصاب الناس موتان وأنت فيهم فاثبت ولا تنازع الأمر أهله وإن رأيت أنه لك وانفق من طولك على أهل بيتك ولا ترفع عصاك عنهم أدبا وأخفهم فى الله عز وجل وعند ابن النجار فى تاريخه من حديث أبى ريحانة بلفظ لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت وحرقت بالنار وأطع والديك وإن أمراك أن تخلى من أهلك ودنياك ولا تدعن صلاة متعمدا فإن من تركها فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله ولا تشربن خمرا فإنها رأس كل خطيئة ولا تزدادن فى تخوم أرضك فإنك تأتى بها يوم القيامة من مقدار سبع أرضين والمسمى بأبى ريحانة صحابيان **أحدهما** الأزدى أو الدوسى الأنصارى وقيل اسمه سمعون **والثانى** أبو ريحانة القرشى وعند الطبرانى من حديث عبادة بن الصامت لا تشركوا بالله شيئا وإن قطعتم أو حرقتم أو صلبتم ولا تتركوا الصلاة متعمدا فإن من تركها متعمدا فقد خرج من الملة ولا تركبوا المعصية فإنها سخط الله ولا تشربوا الخمر فإنها رأس الخطايا كلها ولا تفروا من الموت وإن كنتم فيه ولا تعص والديك وأن أمراك أن تخرج من الدنيا كلها فاخرج ولا تضع عصاك عن أهلك وأنصفهم من نفسك .

ومن هذه الأسباب تتبين النية فى السفر ، فإن معنى النية الانبعاث للسبب الباعث والانتهاض لإجابة الداعية ، ولتكن نيته الآخرة فى جميع أسفاره وذلك ظاهر فى الواجب والمندوب ومحال فى المكروه والمحظور .

وأما المباح فمرجعه إلى النية ، فمهما كان قصده بطلب المال مثلا التعفف عن السؤال ورعاية ستر المروءة على الأهل والعيال ، والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الآخرة ولو خرج إلى الحج وباعثه الرياء والسمعة لخرج عن كونه من أعمال الآخرة لقوله ﷺ : «**إنما الأعمال بالنيات**» (٢١٩٢) .

فقوله ﷺ : «**الأعمال بالنيات**» عام فى الواجبات والمندوبات والمباحات دون المحظورات فإن النية لا تؤثر فى إخراجها عن كونها من المحظورات .

وقد قال بعض السلف : « إن الله تعالى قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم ، فيعطى كل واحد على قدر نيته ، فمن كانت نيته الدنيا أعطى منها ونقص من آخرته أضعافه ، وفرق عليه همه وكثر بالحرص والرغبة شغله ، ومن كانت نيته الآخرة أعطى من البصيرة والحكمة والفطنة وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته، وجمع له همه ودعت له الملائكة واستغفرت له » (٢١٩٣) .

(٢١٩٢) حديث : قال ﷺ : « الأعمال بالنيات » **قال العراقى:** متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم فى حديث رقم١٣٦٢ ص ١٢٠٧ .اهـ.

قال مرتضى : ورواه بهذا اللفظ الإمام أبو حنيفة عن يحيي بن سعيد عن محمد بن إبراهيم التيمى عن علقمة بن وقاص الليثى عن عمر بن الخطاب مرفوعا وهو لفظ ابن حبان فى صحيحه وللستة بلفظ إنما .

(٢١٩٣) حديث : « إن الله تبارك وتعالى قد وكل بالمسافرين ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم فيعطى كل واحد على قدر نيته » ولفظ القوت على نحو نيته « فمن كانت نيته » طلب « الدنيا أعطى منها ونقص من آخرته أضعافه وفرق عليه همه وكثر بالحرص والرغبة شغله ومن كانت نيته » طلب « الآخرة » وأهلها « أعطى من البصيرة والفطنة وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيته وجمع له همه » وملك من الدنيا بالقناعة والزهد شغله « ودعت له الملائكة واستغفرت له » . =

وأما النظر فى أن السفر هو الأفضل أو الإقامة ، فذلك يضاهى النظر فى أن الأفضل هو العزلة أو المخالطة ، وقد ذكرنا منهاجه فى كتاب العزلة فليفهم هذا منه .

فإن السفر نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة تفرق الهم وتشتت القلب فى حق الأكثرين، والأفضل فى هذا ما هو إلا عون على الدين ، ونهاية ثمرة الدين فى الدنيا تحصيل معرفة الله تعالى وتحصيل الأنس بذكر الله تعالى، والأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر ومن لم يتعلم طريق الفكر والذكر لم يتمكن منهما، والسفر هو المعين على التعلم فى الابتداء ، والإقامة هى المعينة على العمل بالعلم فى الانتهاء .

وأما السياحة فى الأرض على الدوام فمن المشوّشات للقلب إلا فى حق الأقوياء . فإن المسافر وماله لعلى قلق إلا ما وقى الله ، فلا يزال المسافر مشغول القلب تارة بالخوف على نفسه وماله وتارة بمفارقة ما ألفه واعتاده فى إقامته وإن لم يكن معه مال يخاف عليه فلا يخلو عن الطمع والاستشراف إلى الخلق ، فتارة يضعف قلبه بسبب الفقر ، وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع ثم الشغل بالحط والترحال مشوش لجميع الأحوال .

فلا ينبغى أن يسافر المريد إلا فى طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدى به فى سيرته، وتستفاد الرغبة فى الخير من مشاهدته ، فإن اشتغل بنفسه واستبصر وانفتح له طريق الفكر أو العمل فالسكون أولى به ، إلا أن أكثر متصوفة هذه الأعصار لما خلت بواطنهم

= **قال مرتضى : أغفله العراقى** وهكذا هو في القوت ومعناه فى المرفوع من حديث أنس فيما رواه ابن أبى حاتم فى الزهد من كانت نيته طلب الدنيا شتت الله عليه أمره وجعل الفقر بين عينيه ولم يأته منها إلا ما كتب له ومن كانت نيته طلب الاخرة جمع الله شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة وعند الطيالسى وابن ماجه والطبرانى من حديث زيد بن ثابت من كانت نيته الاخرة جمع الله شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا راغمة ومن كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له .

عن لطائف الأفكار ودقائق الأعمال ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره فى الخلوة وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين قد ألفوا البطالة واستثقلوا العمل ، واستوعروا طريق الكسب واستلانوا جانب السؤال والكدية واستطابوا الرباطات المبنية لهم فى البلاد واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم، واستخفوا عقولهم وأديانهم من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة وانتشار الصيت واقتناص الأموال بطريق السؤال تعللا بكثرة الاتباع .

فلم يكن لهم في الخانقاهات حكم نافذ ولا تأديب للمريدين نافع ، ولا حجر عليهم قاهر ، فلبسوا المرقعات واتخذوا فى الخانقاهات متنزهات، وربما تلقفوا ألفاظا مزخرفة من أهل الطامات ، فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم فى خرقتهم ، وفى سياحتهم وفى لفظهم وعبارتهم وفى آداب ظاهرة من سيرتهم فيظنون بأنفسهم خيرا و ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف : ١٠٤) ، ويعتقدون أن كل سوداء تمرة ويتوهمون أن المشاركة فى الظواهر ، توجب المساهمة فى الحقائق وهيهات ، فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم فهؤلاء بغضاء الله « **فإن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ** » (٢١٩٤) .

ولم يحملهم على السياحة إلا الشباب والفراغ إلا من سافر لحج أو عمرة فى غير رياء ولا سمعة ،أو سافر لمشاهدة شيخ يقتدى به فى علمه وسيرته وقد خلت البلاد عنه الآن .

(٢١٩٤) حديث : « إن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ » .

قال مرتضى : أغفله العراقى وأخرج سعيد بن منصور فى سننه من قول ابن مسعود أنى لأكره الرجل فارغا لا فى عمل الدنيا ولا فى عمل الآخرة ورواه أحمد وابن المبارك والبيهقى كلهم فى الزهد وابن أبى شيبة من طريق المسيب بن رافع قال : قال ابن مسعود إنى لأمقت الرجل أراه فارغا ليس فى شيء من عمل دنيا ولا آخرة وهو عند الزمخشرى فى سورة الانشراح من قول عمر ﷺ بلفظ إنى لأكره أحدكم سبهللا لا فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة .



بسم الله الرحمن الرحيم

نور اليقين في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين

إحياء علوم الدين للإمام الغزالى موسوعة إسلامية كبرى لا يستغنى عنها كل مسلم فقد جمع فيه الإمام الغزالى أمور الإسلام على أربعة كتب : العبادات ، والمعاملات ، والمهلكات ، والمنجيات ، فأجاد وأفاد .

وقد أورد الإمام الغزالى آلاف الأحاديث كانت مصدراً لآرائه بعد كتاب الله ، أتى بها محذوفة الأسانيد .

وقد عنى **الحافظ العراقى** بتخريج بعض الأحاديث وتعقب مصدرها ، ثم جاء **السيد محمد الزبيدى الشهير بمرتضى** فاستكمل عمل الحافظ العراقى وتعقب بعض الأحاديث التى لم يجد لها الحافظ العراقى أصلا فذكر لها أصولاً تقويها وتنقلها من الضعف إلى القوة وذلك بالرجوع إلى أمهات كتب الحفّاظ .

ولقد قام شيخ المحدثين فى عصره **فضيلة الشيخ محمد الحافظ التجانى** بمراجعة تخريجى الحافظ العراقى والسيد مرتضى الزبيدى ورأى جمعهما فى كتاب واحد وهو أحد أعماله الجليلة المتعددة كترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل ، وذخائر المواريث فى الدلالة على مواضع الحديث للنابلسى ... وغيرها من أعمال لم يقصد بها إلا وجه الله عز وجل .

اتفق جمهور العلماء على أن الحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال لأنها مأمور بها أمراً عامًا ولا تصطدم بعقيدة ولا بأصل من الأصول ولا تحل حراما ولا تحرم حلالاً ، وقد يسوق العلماء الأحاديث الضعيفة بجوار الحديث الحسن أو الصحيح ليزداد السند به قوة وهذا معروف فى فن الحديث .

بمشيئة الله تعالى ستوالى « **دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع** » نشره فى أعداد متتابعة .

والله ولى التوفيق ،

هانى غريب